

سقوط الأمبراطورية الروسية

١٩١٧

القصة الحقيقية للثورة الروسية
 وإقامة الاشتراكية

افنير كورلنكين
ستانيسلاف تيوتوكين

ترجمة: أسما حليم

(من حظ العمال الروس ومما يشرعهم أهم أول من
أشعل الثورة ، هذه الحرب العظيمة ، وهي الحرب
الوحيدة المشروعة والعادلة ، الحرب التي يخوضها المضطهدون
ضد المستبدين) .

كانت بداية القرن العشرين من الفترات العاصفة في تاريخ روسيا . ففي السنة الأولى من القرن الجديد دخلت روسيا ، التي كانت حتى ذلك الحين من المواقع الحصينة للقوى الرجعية في العالم فترة تميزت بعمق الأزمة السياسية التي شملت جميع فئات المجتمع الروسي . وكان من أثر هذه الأزمة التي زادت باضطراب عمقا واتساعا ، أن قامت أول ثورة بوجوازية ديموقراطية في البلاد في ١٩٠٥ — ١٩٠٧ ، والتي كانت موجهة إلى النظام الملكي الاستبدادي القائم ، وانتهى عام ١٩٠٧ ونصف عام من القتال الشرس بين الأهلالي الثأرين والحكومة القيصرية بهزيمة الثورة (١) .

غير أن قوى الثورة لم تسحق . فلم تسكد تقتضى ثلاث سنوات حتى بدأت حركة ثوريه جديدة . وأعيدت إقامة المتاريس في صيف عام ١٩١٤ . ولم يكن لنشوب الحرب العالمية الأولى من أثر غير تأجيل الانفجار الثوري ، وربما كان ذلك من دواعي شدة الانفجار الذي حدث قرب إنتهاء الحرب .

(١) بدأت الثورة عندما أطلق الرصاص بناء على أوامر القيصر على مظاهرة سلميه للعمال في مدينه سان بطرسبرج في ٩ يناير ١٩٠٥ . وردت الطبقة العاملة على تلك المذبحة بإعلان إضرابات سياسيه نادت فيها بسقوط الاستبداد . وكانت الأهداف المباشرة للثورة هي الإطاحة بالامتوقراطية القيصريه ، ومصادرة الملكيات الزراعيه الكبيره ، وتطبيق يوم العمل ذي الثمان ساعات ، ومنح الشعب حقوقه الديموقراطية . وقد حدد فلاديمير لينين منذ عام ١٩٠٥ واجب الانتقال من الثورة البوجوازيه الديموقراطية إلى الثورة الاشتراكيه . ووصلت الإنتفاضه الثوريه إلى قمتها في هبه مسلحه وقعت في موسكو في الفترة بين ٩ و ١٨ ديسمبر ١٩٠٥ . واندحرت الثورة نتيجة لعدم تنسيق الجهود بين العمال والفلاحين والجنود والافتقار إلى وحدة صفوفهم .

ففي فبراير ١٩١٧ قامت ثورة بوجووازيه ديوقراطيه اخرى الكساحه
النظام الاستبدادي الفاسد خلال أيام معدودات .

غير أن المشاكل التي تواجه البلاد كانت من التعقيد والانساع ، والشايفات
التي تمزق المجتمع الروسي من العمق والحدة ، والقوى المشتركة في الصراع من
الضخامة والتنوع بحيث لم يكن انتصار ثورة فبراير ذاته كافيا لخروج روسيا من
المأزق الذي دفعته إليه الطبقات الحاكمة . وأصبح لابد من قيام ثورة أخرى ،
إشتراكية ، لإنقاذ البلاد من كارثة قومية . وتوجت تلك الثورة بإلشاء أول دولة
في العالم للعامل والفلاحين في أكتوبر ١٩١٧ .

فلماذا كانت الثورة الاشتراكية ضرورية وحتمية في روسيا ؟ ولماذا لم
تتكرر الأنماط الكلاسيكية للثورات البوجووازيه التي عرفها الغرب ؟ سنحاول
هنا أن نقدم الإجابة على هذين السؤالين .

• • •

أولا - تناقضات المجتمع الروسى

الجمع بين الرأسمالية الصناعية والمالية المتقدمة
والملكية الإقطاعية للأرض ونظام سياسى عتيق

لكل حدث تاريخى جذوره العميقة ، ويصدق ذلك بصورة خاصة على
نقطة تحول جوهريه مثل ثورة أكتوبر ١٩١٧ .

ولذا سيكون علينا ، لتبين الأسباب التى أدت إلى الثورة الاشتراكية فى
روسيا ، أن نرجع ببصرنا إلى الماضى ، إلى أواسط القرن المنصرم .

كانت رياح الثورات البورجوازية قد اكتسحت أمامها العصور المظلمة
وطهرت منها معظم الدول الغربية . ولكن يمكن أن يقال أن روسيا ، نتيجة
للجهود اليائسة التى بذلتها قواها الرجعية الإقطاعية ، كانت قد تجمدت وتحصنت
ضد روح العصر . وقد عبر السائح الفرنسى الماركيز استولفى دى كوستين عن
ذلك تعبيراً بليغاً بقوله إن روسيا فى تلك الأيام كانت إناء يغلى وعليه غطاء محكم
وقد وضع فوق نار ملتهبه (١) .

وكانت البلاد متجهة إلى أحداث حبلية بالثورة ، وقد أدركت الحكومة
القيصرية مدى خطورة الموقف . فى أواسط القرن التاسع عشر واجهت
الآوتوقراطية الروسية الاختيار بين فقد سيطرتها أو إيجاد شيء من التلاؤم
مع الاتجاه الرأسمالى الذى يتطور باستمرار واضطرت الآوتوقراطية بعد الهزيمة
المخزية فى حرب القرم إلى البدء فى تنفيذ بعض الإصلاحات البورجوازية .

(١) Marguis de Custine . Russia under Nicolas , Moscow
1930 P . 135

وأدى إلغاء القنانة في عام ١٨٦١ إلى إنهاء الخضوع الشخصي من جانب
الفلاحين لملاك الأرض . وبذلك رفع إلى حد ما الغطاء المحكم عن الإناء الذي
يغلى . وكان من الإصلاحات التي نفذت خلال السنين والسبعينات من القرن
الماضي إنشاء محاكم مستقلة ، وإجراء المحاكمات علناً ، وإقامة الحكم الذاتي المحلي ،
والخدمة العسكرية المحلية ، وغير ذلك من الإجراءات التي أضفت على روسيا
مظهر البلد الأوروبي . لكنها لم تؤد إلى أكثر من تأجيل الانفجار الحتمي .

فهذه الإصلاحات وإن كانت بورجوازية في جوهرها ، قد نفذها الاستبداد
الاقطاعي من أعلى ، وكان هدفها الأساسي المحافظة على أكبر قدر ممكن
من الامتيازات الاقتصادية والسياسية للسادة النبلاء والحكم المملكي المطلق .
ولذا لم يكن غريباً أن يتسم تطور روسيا في الاتجاه الرأسمالي بالتعقيد
والتناقض .

فوجد من ناحية أن السياسة الاقتصادية الرسمية قد ساعدت التطور التلقائي
للرأسمالية وعجلت به وكانت الحكومة تسعى إلى تعزيز القدرة العسكرية الاقتصادية
للبلاد لرفع مكانتها الدولية بوصفها إحدى الدول الكبرى ، كما تحاول إرساء
الأساس لتنظيم إقتصادي جديد للملكيات الزراعية ، وكانت الحكومة مضطرة
من أجل تحقيق ذلك إلى الإسراع بتنمية عدد من القطاعات الأساسية للاقتصاد
بصورة مصطنعة ، وفي مقدمتها الصناعات الثقيلة .

ومن ناحية أخرى كان لدى الأوتوقراطية إحساس غريزي بما يمكن للتطور
الرأسمالي أن يتزله بالنظام الاستبدادي من دمار ، ولذا بذلت كل ما في وسعها
لدفع هذه السمايه نحو مسالك مأمونه . لكن المستبدين تعذر عليهم بعد إطلاق
الجنى من القمقم ، أن يحتفظوا بسيطرتهم عليه .

وكانت السياسة التي اتبعتها الأوتوقراطية سياسة متناقضة ولا تنفذ بحماسة ،

وثبت في المدى الطويل أنها ضارة بالنظام القيصري . وتنتج عنها تفاقم التناقض الرئيسي في فترة ما بعد تنفيذ الإصلاح ، ألا وهو التناقض بين العلاقات الرأسمالية التي تنطوّر بمرعه في كافة مجالات الحياة الاجتماعية وبين بقايا الإقطاع .

وخلال العقود القليلة التي أعقبت عام ١٨٦٠ قطعت روسيا شوطا تطلب مثله من بعض دول الغرب الرئيسية بضعه قرون . وخلال فترة زمنية قصيرة تاريخيا نشأت صناعات جديدة وحديثة كالبتروول ، والفحم ، وصنع الآلات ، والهندسة الكهربائية ، والصناعات الكيماوية .

وبحلول عام ١٩٠٤ كانت البلاد تملك حوالي ٣٠٠٠٠ مصنع ، وأدخلت الأساليب الحديثة على المراكز الصناعية القديمة والمناطق الاقتصادية العتيقة ، ونشأت مناطق جديدة وارتبطت هذه المناطق بشبكة من الخطوط الحديدية وصل طولها في عام ١٩١٧ إلى أكثر من ٨٠٠٠ كيلو متر ، ولم يكن يسبق روسيا في هذا المجال غير الولايات المتحدة . كما أدخلت وسائل الاتصال الحديثة كالتليفون والتلغراف .

وبذلك أصبح الاقتصاد الروسي جزءاً من النظام الرأسمالي العالمي ، وأصبح يتأثر بشدة بالنفض الدوري للاقتصاد العالمي — فترات الانتعاش وفلازمه والكساد . ففي بعض الأحيان كانت روسيا تتقدم بسرعة ، وفي أحيان أخرى تتقدم بمعدل أبطأ . وكانت في بعض الأحيان تتأخر عن الولايات المتحدة وألمانيا في معدل زيادة الإنتاج ، ولكنها كانت تسبق بريطانيا وفرنسا دائماً . وشهدت الصناعات الروسية معدلات سريعة للنمو بشكل استثنائي خلال تسعينات القرن الماضي ، ومرة أخرى قبل الحرب العالمية الأولى (١٩٠٩ — ١٩١٣) وفي كل مرة خلال هاتين الدورتين تمكنت من مضاعفة إنتاجها الصناعي الإجمالي ، وكانت أولى دول العالم في معدل نمو الإنتاج .

وفي عام ١٩٢٣ كانت روسيا تحتل المركز الرابع أو الخامس في الإنتاج الصناعي العالمي ، إذ أصبحت مساوية لفرنسا في الإنتاج الإجمالي ومساوية لها في عدد من قطاعات الصناعة الثقيلة . وأصبحت روسيا بلداً صناعياً زراعياً على درجة متوسطة من التطور وانضمت إلى نادي دول العالم الكبرى وذلك بفضل مساحة أراضيها الشاسعة ، واعداد سكانها ، ومواردها الطبيعية ، وإمكاناتها الاقتصادية والعسكرية .

وقد أمكن تحقيق هذا الازدهار الصناعي نتيجة للفرصة المتاحة لروسيا لاستخدام رؤوس الأموال الأجنبية على نطاق واسع ، والخبرة التنظيمية والفنية للدول الأكثر تقدماً . وظهرت صناعات جديدة لإنتاج الآلات ، كما زودت المصانع بمعدات مستوردة إن لم تكن من أحسن طراز فهي على كل حال من المعدات الحديثة . وبدأ قوماً بعد تزويد الصناعة جزئياً بمعدات مصنوعة محلياً . ولجأت روسيا إلى استخدام الخبراء الأجانب لتنظيم الإنتاج وانتهزت الدول الغربية التي كان لديها فائض من رؤوس الأموال غير المستغلة هذه الفرصة للقيام باستثمارات مربحة في روسيا .

ودخلت رؤوس الأموال الأجنبية إلى القطاعات الأساسية للاقتصاد الروسي ولكن ليس معنى ذلك أن الصناعة في روسيا كانت مجرد تابع للشركات الأجنبية وإذا كانت رؤوس الأموال الأجنبية تستثمر في الدول التابعة أو شبه التابعة في المقام الأول في القطاعات المشتغلة بإنتاج المعادن وتجهيز المواد الخام ، فقد استخدمت في روسيا لتطوير الصناعات الأساسية ، وسعت إلى التلاؤم مع احتياجات البلد وإلى التعاون الوثيق مع رؤوس الأموال المحلية . وكان معظم الاستثمارات في صورة قروض حكومية أو قروض مضمونة من الحكومة استخدمت قبل كل شيء في إنشاء السكك الحديدية . ولم تتجاوز الاستثمارات

الأجنبية المهاجرة في أي وقت تلك رؤوس الأموال المستغلة في الشركات المساهمة، بل إن روسيا نفسها كانت تستثمر بعض أموالها في مستعمراتها وفي بعض البلدان الأقل تقدماً (الصين وإيران ومنشوريا) وإن كانت هذه الاستثمارات ضئيلة نسبياً .

ولم يكن لرؤوس الأموال الأجنبية أثر موحّد على الاقتصاد الروسي . فع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر كان مجموع الفوائد التي تدفع للقروض الأجنبية يتجاوز رؤوس الأموال الواردة من الخارج ، ونشأت عن ذلك أزمة في ميزان المدفوعات ، وزيادة في الضرائب ، وترتب عليها احتدام المنازعات الاجتماعية . وأخيراً وليس آخراً فإن مقادير متزايدة من القروض الأجنبية التي كانت تستخدم لدعم النظام الإقطاعي الاستبدادي ، أصبحت هي العنبة الرئيسية في طريق التقدم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

وفي مطلع القرن العشرين بدأت بعض التغيرات الجوهرية المميزة للبلدان الصناعية تبرز في هيكل الصناعة الروسية وتجهيزها الفني وأشكالها التنظيمية . ولما كانت الصناعة الثقيلة تسبق الصناعة الخفيفة بكثير في معدل زيادة الإنتاج ، فإن الميزان بدأ يميل بشكل متزايد لصالح القطاعات التي تقوم بصنع وسائل الإنتاج ، فزادت حصتها من ٣٠ ٪ إلى ٤٠ ٪ في بداية القرن العشرين ، وهو معدل يزيد قليلاً عن نظيره حتى في ألمانيا وفرنسا . وكانت الزيادة في الإنتاج الصناعي ، وخصوصاً خلال فترة الازدهار السابقة على الحرب ، مصحوبة بتغيرات واضحة في تجهيز المصانع وتكنولوجياها ، وفي تحسين تنظيم الإنتاج . وكان معظم المصانع الجديدة — وتمثل نحو نصف المؤسسات القائمة — مساريه بوجه عام لأفضل الشركات الأجنبية فيما يتعلق بتجهيزها ومعداتنا . وقد لاحظ ذلك أحد الكتاب الفرنسيين فقال : وصلت روسيا في عام ١٩١٣ إلى مستوى

أوروبا من حيث تجهيز الإنتاج الصناعي^(١) .

وكان تطور الهندسة والتكنولوجيا في روسيا قد بلغ أيضا مستوى لا بأس به . فالأنواع الجديدة من السفن والقاطرات والمحركات التي بدأ إنتاجها في مطلع القرن العشرين كانت مطابقة للمستويات العالمية في ذلك الحين .

وأدى التركيز المتزايد للإنتاج ورؤوس الأموال إلى ظهور إتحادات إحتكاريه قوية في الاقتصاد الروسي . وأصبح نفوذها ملموسا في جميع جوانب الحياة . وكانت روسيا في مقدمة دول العالم من حيث مستوى تركيز الإنتاج الصناعي الكبير . ومئات المصانع الكبيرة التي تستخدم أكثر من ٥٠٠ عامل أكثر من ٧٠٪ من إجمالي الإنتاج ونحو ثلاثة أرباع الأيدي العاملة منذ أواخر القرن التاسع عشر . ففي عام ١٩١٤ كان متوسط عدد العمال في المصانع الكبيرة في روسيا ١٤٠٠ عامل في مقابل ١١٠٠ في الولايات المتحدة و ٩٠٠ في ألمانيا .

رغم أن عدد الشركات المساهمة في روسيا كان أقل منه في الدول المتقدمة ، وأن حجم رأس المال المساهم كان أقل أيضا ، فإنها كانت تسبق الكثير من تلك الدول ولا سيما بريطانيا وألمانيا من حيث متوسط حجم رأس المال . وكان هذا التركيز الشديد للإنتاج ورؤوس الأموال هو ما دفع إلى تشكيل إتحادات المنتجين التي احتكرت إنتاج وتسويق عدد من المنتجات الصناعية الرئيسية . وقبيل الحرب العالمية الأولى كان في روسيا ما يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ من هذه الاحتكارات الكبرى ، تحتكر أكثر من ٨٠ نوعا من السلع الصناعية وبالإضافة إلى ذلك بدأت الإتحادات الشبيهة بالتروستات في الظهور إلى جانب إحتكارات التسويق كالكرنلات والسنديكات . وكانت درجة الاحتكارات عالية جداً

(١) R - de Bonand . les trois Empires asiatique : Russie - chine - Japon . Paris , 1913 , P . 138

ولاسيما في الصناعة الثقيلة . ومثلت الاتحادات الاحتكارية في صناعات الفحم والحديد والصلب مثلاً ما يقرب من ثلاثة أرباع الحجم الإجمالي للإنتاج . ووصل الرقم إلى ١٠٠ ٪ فيما يتعلق بإنتاج وسائل النقل والمواصلات .

ولعبت البنوك دوراً أساسياً في هذه العملية . فإلى جانب بنك الدولة الذي كان له أكثر من ١٠٠ فرع ، كان في روسيا في عام ١٩١٤ ، ٥٣ بنكاً تجارياً يعتبر كل منها شركة مساهمة ، لها ٧٧٨ فرعاً ، ١١٠٨ من بنوك الرهونات في المدن و ٢٠ بنكاً كبيراً للرهنونات و ٣٦ بنكاً للتسليف ، وأكثر من مائة مؤسسة أخرى للتسليف والإقراض .

وكانت البنوك التجارية تحتل المكانة الرئيسية في هذا المجال ، إذ كان يتركز لديها ٧٠ ٪ من إجمالي الودائع والحسابات الجارية ، وتقوم بعمليات واسعة لتمويل الصناعة والزراعة والتجارة . وتركز نصف الموارد والصفقات التي تقوم بها المصارف التجارية جميعاً في البنوك الرئيسية الخمسة . وفي عام ١٩١٣ كانت هذه البنوك ممثلة في مجالس إدارات ٢٤٨ شركة مساهمة كبرى . وهكذا تمت الاحتكارات المصرفية والمجموعات الصناعية المالية .

وكانت هذه العملية الأساسية التي تحدث في روسيا في فترة ما قبل الثورة هي العملية النموذجية التي تقع في غيرها من الدول الرأسمالية . ومن الملاحظ أن أشكال الاتحادات الاحتكارية ، ومستوى الاحتكار في القطاعات الأساسية للاقتصاد ، والاتجاهات الرئيسية لتطور رأس المال المالي ، متماثلة تقريباً في روسيا وفي الدول الغربية .

غير أن الإنجازات التي حققتها روسيا على طريق التقدم الرأسمالي وإن بدت كبيرة لأولاه الأولى ، كانت نسيجه في الواقع . فإذا كانت الفجوة بين روسيا والدول الرأسمالية الأساسية — الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا — في الإنتاج

الصناعى الإجمالى قد ضاقت ، وقد بقيت واسعة رغم ذلك . وكان مخلف روسيا أوضح فيما يتعلق بالإنتاج الصناعى بالنسبة للأفراد إذ كانت مماثل فى هذا الصدد بعض الدول التى كانت تعتبر فى ذلك الحين متخلفة نسبيا مثل أسبانيا وإيطاليا واليابان والنمسا والمجر .

وكان التقدم الصناعى ذاته مشوها وغير منتظم . فمعظم المنشآت الصناعية الكبيرة قد قامت فى خمسة أو ستة أقاليم فى روسيا الأوروبية . ومثلت تلك المناطق أكثر من ٧٥ ٪ من إجمالى الإنتاج الصناعى وأكثر من ٨٠ ٪ من الأيدي العاملة فى مجال الصناعة . ولم يكن فى المساحات الشاسعة الأخرى غير صناعات جينية . ولم تتمكن الصناعة الروسية فى مجموعها فى أى وقت من التغلب على التخلف الفنى والاقتصادى الذى ورثته من العهد الإقطاعى ، مما جعلها متأخرة عن دول الغرب .

وكانت البقايا العديدة للإقطاع فى ريف البلاد هى العقبة الرئيسية فى سبيل التنمية والتطور . وليس معنى ذلك أنه لم يحدث تغيير فى الزراعة فى روسيا بعد ١٨٦١ .

فقد حدث قدر من التقدم ، إذ زادت الأراضى المزروعة زيادة كبيرة ، ولا سيما المساحات المزروعة بالمحاصيل الصناعية . وتحسن التجهيز الفنى لبعض المزارع الكبيرة .

وبحلول عام ١٩١٤ كانت روسيا هى أكبر بلاد العالم المصدرة للحبوب ، فثلث صادراتها نحو ثلث الصادرات العالمية لكن نجاحها فى هذا المجال كان أقل نسبيا من نجاحها فى مجال الصناعة . وكان إنتشار نظام العزب (اللاتيفونديا) سببا فى استمرار بقايا الإقطاع ، وعزز ذلك النظام المطبق فى إدارة العزب الذى نشأ بعد قوانين الإصلاح الصادرة فى ١٨١٦ . وهنا أيضا سيكون

عائداً إلى ترسدهم مرة إلى الماضي حتى فهم السبب في حدة المشاكل الزراعية في روسيا .

فرغم أن الثورة قراضية قد ضحت بنظام القنانة ، إلا أنها بذلت كل ما في وسعها للإبقاء على أملاك النبلاء ومزارعهم فاحتفظ النبلاء بالجانب الأكبر من الأراضي والديارات والمراعى وغيرها من المرافق الضرورية للزراعة الناجحة . وكان للملاحين أيضاً في الأراضي التي يزرعونها ماشيتهم وأدوات عملهم .

وحصلوا كذلك على مساحات من الأرض ، غير أن حجم تلك المساحات ونوعها لم يكن يتيح لهم أن يعيشوا حياة لائقة . ولذلك كانوا مضطرين إلى زراعة أراضي السادة إما مقابل أجور نقدية أو مقابل ترتيب ما لإقتسام المحصول غير أنهم كانوا يضطرون في أغلب الأحيان إلى العمل عن طريق استئجار الأراضي الزراعية أو غيرها . وبذلك تمكن النبلاء ، باستخدام ما سمي بنظام العمل الخارجى ، من إدارة مزارعهم دون أن يتفقوا أى أموال فيها . وحتى يبقى الفلاحون أكثر خضوعاً للنبلاء ، اتخذت الحكومة عدة خطوات لإبقائهم في المناطق الريفية ، وإبطال عملية إنقسامهم إلى فئات إجتماعية تبعاً لحجم الملاكية . وساعد على ذلك الاحتفاظ بنظام الشيوع الإقطاعى وتعزيزه بكل ما فيه من بقايا النظم العتيقة ، وعدم التمييز بين ملكية الأرض واستئجارها ، وإعادة تقسيم المساحات المزروعة من وقت لآخر ، وارتباط الفلاحين برقعة الأرض التي يزرعونها ، ووضع القيود على ما يقومون به من بيع أو شراء ، وعلى حقوقهم فى الانتقال ، وذلك بالمسؤولية الجماعية المشترية لأعضاء المشاع ، والعقوبات البدنية . وسال ذلك كله دون المبادرات الاقتصادية للفلاحين والملاك على السواء بل وأدى أيضاً إلى استبعاد الإيدى العاملة وركود الانتاج الزراعى فكانت أساليب الزراعة متخلفة جداً وإنتاجه العمل شديدة الانخفاض .

ولكن رغم جميع هذه العقبات ، شقت الرأسمالية طريقها سواء في المزارع
الكبيرة أو في المساحات الصغيرة التي يزرعها الفلاحون . وبالتدريج تحول النظام
المؤقت للعمل الخارجي إلى نظام رأسمالي . فبدأ الملاك في استخدام الأيدي العاملة
مقابل أجر ، واستخدام الآلات والأدوات التي يملكونها في مزارعهم . وبدأ
عدد المزارع التي يملكها الفلاحون الأفراد في الزيادة ، وأخذت المزارع المشاعية
في التفكك ، وتحول الموجودون فيها إلى بورجوازية ريفية وبروليتاريا .
وتعرض الملاك الذين لم يسايروا الأوضاع الجديدة للإفلاس واختطروا إلى بيع
أراضيهم .

غير أن هذه العملية تمت ببطء شديد ولا سيما في المناطق الوسطى من البلاد .
ورغم أن النبلاء كانوا قد فقدوا أكثر من ٤٠ ٪ من أراضيهم بحلول عام ١٩٠٦
فقد بقوا يملكون ٦٢ ٪ من مجموع الأراضي الخاصة .

وظهر عجز حاد في ملكية الأراضي بين الفلاحين إذ أن المساحات التي حصلوا
عليها نتيجة للإصلاح الزراعي انخفضت إلى النصف بسبب زيادة تعدادهم .

وفي مطلع القرن العشرين أصبح الوضع متفجراً في الريف . وتمثل جوهر
النزاع في أنه بينما يملك ٢٨٠٠٠ من كبار الملاك ٦٢ مليون هكتار ، أي أن
كلا منهم يملك أكثر من ٢٣٠٠ هكتار ، فهناك أكثر من ١٠ ملايين مالك صغير
من المجموع الإجمالي البالغ ١٢٣ مليون ، لا يصل مجموع ملكياتهم إلى أكثر
من ٧٥ مليون هكتار . وكان من اللازم في حدود الأساليب الزراعية والتكنولوجية
السائدة في ذلك الحين أن يملك المزارع ١٥ هكتاراً على الأقل ليضمن الحد الأدنى
من الاحتياجات لأسرة الفلاح المتوسطة . ومن ذلك يتضح أن أربعة أخماس
الفلاحين كانوا يعيشون تحت الحد الأدنى للاحتياجات الأساسية .

وأدت هزيمة الثورة في ١٩٠٥ - ١٩٠٧ إلى تأخير الوصول إلى حل جذري

للمشكلة الزراعية ، لكن الحكومة اضطرت مرة أخرى إلى فتح الصمام قليلاً لتخفيف التوتر الاجتماعي . فقترح وزير الداخلية في ذلك الحين والذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء ، ب . ا . ستوليبين ، إتباع منهج آخر للسياسة الزراعية . وكانت الفكرة فيه هي إنهاء النظام المشاعي وتمليك الأرض للفلاحين كملكية خاصة . كما اقترح تبشير بيع الأرض للفلاحين الميسورين عن طريق بنك الفلاحين — وهي الأراضي التي يرغب النبلاء في بيعها لأسباب مختلفة — وأخيراً إعادة توطين الفلاحين المتعطشين للأرض من أهالي المناطق المتوسطة في المناطق البعيدة بآلافهم أراض من أملاك الدولة . وبذلك حاولت الاوتوقراطية أن تحل المشكلة الريفية دون المساس بأسس نظام الملكية الزراعية ، والاعتماد في مناطق الريف على الفلاحين الأغنياء .

غير أن هذه الخطة لم تنجح . ففي الفترة بين ١٩٠٦ و ١٩١٥ خرج من النظام المشاعي ٢٥ مليون مزرعة تبلغ مساحة أراضيها ١٧ مليون هكتار أي نحو ١٢ ٪ من المساحات المزروعة . وعمد مليون من الملاك الجدد ، معظمهم من الفلاحين الفقراء إلى بيع الأراضي التي حصلوا عليها على الفور . وأبدى معظم الفلاحين عدم رغبتهم في التخلي عن النظام المشاعي خوفاً من أن يزداد وضعهم تدهوراً . وبلغت مساحات الأراضي التي بيعت عن طريق بنك الفلاحين ثمة ملايين ونصف مليون هكتار تمثل ١٠ ٪ من مجموع الأراضي ، ولا تزيد عن قطرة في بحر الفقر في الريف . ولم تحقق إعادة التوطين الآمال التي علمت عليها . إذ أن معظم المتوطنين لم يتمكنوا من النجاح في المناطق الجديدة ، وكان مصيرهم الانضمام إلى صفوف الفقراء في تلك المناطق أو العودة إلى مواطنهم الأصلية مفلسين إفلاساً كاملاً .

ومن الناحية الاقتصادية الخالصة ، أدى الإصلاح الزراعي إلى الإسراع

لدرجة ما بتطور الرأسمالية الريفية وإلى زيادة طفيفة في الإنتاج الزراعى .
غير أن حدة المنازعات القديمة في الريف لم تقل . حتى عام ١٩١٧ كانت
الملوكيات الكبيرة للأرض - ملكيات النبلاء والملوك الجدد - تمثل أكثر
من ٧٠ ٪ من مجموع الأراضي التى يملكها الأفراد في روسيا . وبقيت الأراضي
التي تملكها الحكومة والأديرة والأسرة المالكة على حالها تقريباً . وأضيفت إلى
التناقضات القديمة تناقضات جديدة نتيجة لاحتدام الصراع الطبقي بين الرأسماليين
الريفيين وأفقرفئات الفلاحين . وبينما كانت الحكومة تأمل أن يؤدي الإصلاح
إلى تخفيف التوتر الاجتماعي في الريف جاءت النتيجة على العكس تماماً .

وكان لسياسة المحافظة بصورة مصطنعة على بقايا الإقطاع في الريف أثرها على
مختلف جوانب الحياة الاجتماعية للبلاد . فسكان من نتائجها في الزراعة لإنخفاض
مستوى الإنتاج والكفاءة ، وأصبح من المحتم أن يتعرض الفلاحون للفشل
الدورى المحاصيل والمجاعة . وكانت آخر هذه الكوارث قبل الحرب عندما
فشلت المحاصيل في عام ١٩١١ وتعرضت مناطق مختلفة يبلغ تعداد سكانها نحو
٣٠ مليون نسمة لمواجهة الجوع وانتشار وباء التيفوئيد .

ورغم أن غلة المحاصيل الأساسية قد ازدادت فإن الزراعة لم تتمكن من
تلبية احتياجات الأعداد المتزايدة من السكان واحتياجات الصناعة التي كانت تطلب
باستمرار المزيد من المواد الخام . وكانت زيادة الإنتاج بكاملها ترجع إلى
إستصلاح مساحات جديدة بدأ استغلالها بعد إلغاء القنانة . وانخفضت غلة
المحاصيل في الواقع في المناطق الوسطى التي تنتشر فيها المزارع الكبيرة .
وترتب على انخفاض مستوى معيشة الفلاحين الذين يشكلون ثلاثة أرباع

العدد الإجمالي للسكان ، أن ضاقت السوق المحلية سواء بالنسبة للصناعة أو الزراعة
وكان لذلك أثره على رخاء السكان جميعاً .

وفي المجال الاجتماعي أدت بقايا الإقطاع إلى تأخر تشكيل الطبقات المعروفة في المجتمع الرأسمالي . فالفلاحون المتمطشون للأرض ، والمستعبدون للبلاد ، لم يستطيعوا أن يجدوا أعمالا في مجال الصناعة . وأقلس عدد كبير من الفلاحين ، وبذلك نشأ فائض غير ظاهر من السكان في الريف . ووصل عدد العمال العاطلين في الريف في عام ١٩١٤ إلى حوالي ٣٠ مليونا .

ويمكن الصناعيون بسبب هذا الفائض من الأيدي العاملة الرخيصة ، من الاقتصاد في الانفاق على تجهيز المصانع ، مما أدى إلى تباطؤ التقدم التكنولوجي وترتب على ذلك إنتشار الأشكال البدائية القاسية في استغلال العمال .

وأخيرا وليس آخرا ، كان من أثر بقايا القرون الوسطى في المجال السياسي أن بقيت البنية العلوية السياسية ذات الطابع الإقطاعي والتي تمثلت في الاستبداد الروسي . ورغم أن الاوتوقراطية اضطرت إلى إدخال عدد من الإصلاحات وقد كانت روسيا عند نشوب الحرب العالمية الأولى أشد بلدان أوروبا رجعية من حيث شكل نظامها السياسي .

ورغم أن القيصرية اتخذت خطوة نحو النظام الملكي البورجوازي في الستينات والسبعينات من القرن الماضي ، فإنها احتفظت بجميع سمات النظام الاستبدادي الإقطاعي سواء من الناحية الواقعية أو الناحية القانونية . وفي ظل أسرة رومانوف كانت دعوى الحق المقدس للقيصرة وعدم جواز المساس به تنتقل من جيل إلى آخر . وقد تمسك آخر القياصرة الروس ، نيقولا الثاني ، بهذه القاعدة باصرار . وجاء في بيان ارتفائه العرش قوله : « إننا قد تلقينا من الله سبحانه وتعالى سلطة حكم شعبنا ، وسوف نحاسب بين يديه على مصائر الامبراطورية الروسية » .

غير أن القيصرية التي أوزعها حجم الثورة الروسية الأولى لجأت إلى المناورة .

فبينما اعتمدت في المجال الاجتماعي على الفلاحين الأغنياء . أدخلت في المجال السياسي الأجهزة النيابية لمحاولة تخفيف التوتر . فأنشأت مجلس الدوما المنتخب ، وأصدرت تنظيمها جديداً لمجلس الدولة بحيث يصبح بعض أعضائه منتخبيين . وأصبح لكل من المجلدين سلطة تشريعية رسمية ، وكان ومنهم ما أشبه بالبرلمانات الغربية التي تتألف من مجلسين . لكن هذا التشابه لم يكن أكثر من تشابه ظاهري .

فقد احتفظ القيصر بعد الثورة بالسلطة الكاملة ، وكان له الرأي الأخير في إصدار أي قانون ، كما كانت له سلطة تنفيذية غير محددة . فهو الذي يعين الوزراء وهم مسؤولون أمامه وحده . واستمر القانون ينص كما كان الحال في الماضي على « أن امبراطور روسيا بأسرها يملك سلطة عالية مطلقة ، وقد قضى الله تعالى بالخضوع لسلطانه لا بالخوف فحسب بل وبالإيمان » .

ولم يكن الانتخاب للأجهزة النيابية الملياً عاماً ولا مباشراً ولا متكافئاً . فنصف أعضاء مجلس الدولة يعينهم القيصر والنصف الآخر ينتخبه رجال الدين ، وأجهزة الحكم المحلي (الزمستفو) وجهيات القضاء ، واتحادات أصحاب الأعمال ، والجامعات وأكاديمية العلوم .

وحرمت فئات عديدة من السكان من حق انتخاب مجلس الدوما ، من بينها كل من يقل عمره عن ٢٥ سنة ، والنساء ، والطلبة ، والعسكريون ، والاهالي المرحلون ، ومن إليهم . وكان الانتخاب يتم على عدة درجات . فهناك نظام من درجتين لكبار الملاك والرأسماليين ، ونظام من ثلاث للمهالي ، ونظام من أربع درجات للفلاحين والقطاعات المختلفة تختار أعداداً مختلفة من الناخبين . وفي آخر الأمر كان

الصوت الواحد اليالك الكبير يساوى صوتين من أصوات الرأسماليين ، و ٢٦٠ صوتا للعمال و ٥٥٠ صوتا للفلاحين .

وعندما رأى القيصر أن مجلس الدوما لم يعد خاضعا بما فيه الكفاية ، لم تتردد السلطات في حله (كما حدث مع مجلتي الدوما الاولين في ١٩٠٦ و ١٩٠٧) وفي تغيير قانون الانتخاب . وقد ظهر موقف الحكومة من « التمثيل الشعبي » بوضوح في كلمة قالها أحد رؤساء الوزارات ، ف . كوكوستيف ، إذ قال في إحدى جلسات مجلس الدوما بصراحة : « ليس لدينا في هذا البلد برلمان ، ولله الحمد ! » .

ولم يكن لدى روسيا أيضا شيء من الحريات الديمقراطية الأساسية . وكان بيان ١٧ أكتوبر ١٩٠٥ الذي انتزعته الثورة من القيصر يمنح الرعايا الروس عدداً من الحقوق المدنية من الناحية الشكلية . غير أن البيان بقي من الناحية الفعلية مجرد قطعة ورق . وساد البلاد الحكم البوليسي التعسفي .

وهكذا كانت روسيا عند بدء الحرب العالمية الأولى تموج بالتناقضات العميقة التي مزقتها . وهي تناقضات نشأت من بقايا الإقطاع والتطور الرأسمالي السريع على السواء . وبقيت القضايا التي لم تحل للثورة البورجوازية الديمقراطية من المسائل ذات الأولوية المتقدمة حتى فبراير ١٩١٧ بعد أن ازدادت حدة .

ولكن بات من الواضح بصورة متزايدة أن انتصار تلك الثورة ذاته لن يحل المسائل الأساسية المتعلقة بمصالح الجماهير الشعبية العريضة . إذ كانت التناقضات التي صاحبت دخول البلاد العصر الإمبريالي قد تفاقمت ، وازدادت حدة المنازعات الاجتماعية بحيث أصبح من المتعذر حلها بثورة بورجوازية من أعلى . ولم يكن في الوسع أن تحل مشاكل البلاد بصورة جذرية إلا عن طريق ثورة شعبية حقا ، ثورة اشتراكية . وكان لدى روسيا الحد الأدنى من الشروط المادية والتقنية

اللازمة لذلك، ومن بينها الإنتاج الآلى الكبير، ومجموعة من المؤسسات المصرفية، وشبكة واسعة من الطرق، وجهاز متطور لحيا للحاسبة والتوزيع، أقامته الدولة والاحتكارات. كما أن الترابط الاجتماعى والسياسى لمختلف القوى فى روسيا كان قد قطع شوطا لا بأس به. ولم يعد هناك شك فى أنه يمكن وينبغى للثورة البرجوازية أن تتطور إلى ثورة اشتراكية.

هرم ايل للسقوط :
ظهرت المنازعات الحادة عميقة الجذور المميزة لروسيا فى مطلع القرن العشرين على السطح فى صورة صراع متعاطم بين مجموعة واسعة من القوى الاجتماعية التى تشكلت فى طبقات ومعسكرات سياسية. فكيف كان التركيب الاجتماعى للبلاد قبل تلك الفترة المعاصرة من تاريخها، وماذا كانت أجزاؤه الرئيسية ؟

وكان المجتمع فى روسيا، شأنه فى أى بلد رأسمالى، يتألف من ثلاث طبقات رئيسية : البرجوازية، والبرجوازية الصغيرة، والبروليتاريا. غير أنه ينبغى للمقارئ أن يتذكر أن هذه الفئات الاجتماعية الموجودة أيضا فى العالم المعاصر كانت مختلفة بعض الشيء فى مطلع القرن العشرين. فقد حدثت تغييرات هامة منذ ذلك التاريخ فى مستوى المعيشة وفى التركيب الفكرى والنفسى لتلك الطبقات. ومن ثم فإن من يعيشون فى أيامنا هذه ممن ألفوا الموظفين والعمال الحاليين، والمزارع المزودة بمختلف الآلات الزراعية، وتوافر المديرين الكفاء فى مكاتب الشركات الضخمة وما إلى ذلك، يصعب عليهم أن يتصوروا الانماط الاجتماعية فى روسيا فى مطلع هذا القرن.

ومع ذلك فإن جوهر الطبقات الأساسية للمجتمع الرأسمالى بقى على حاله فى الجوانب الرئيسية. فما زال العمال الذين يعملون مقابل أجر ينتجون فائض

الثيمة ، وما زال كبار أصحاب الاعمان والبورجوازية المتوسطة يحصلون على ذلك الفاتس، بينما يدير صغار الملاك أو صغار أصحاب الاعمال مزارعهم أو أعمالهم معتمدين على جهودهم الذاتية .

وكان هذا هو الوضع في روسيا في بداية القرن العشرين ، مع فارق واحد وهو أن تكوين الطبقات الأساسية للجتمع الرأسمالي لم يكن قد استكمل بعد . وكانت الحدود الطبقيّة مهزوزة ، جداً ، والفوارق معقدة ومضطربة نتيجة للتقسيمات الفتوية . وإلى جانب الفئات والمجموعات المعتادة في المجتمع الرأسمالي الحديث كانت روسيا تحتفظ حتى عام ١٩١٧ بالدرجات الموروثة من العهد الإقطاعي ، كتقسيم الناس إلى نبلاء وتجار وفلاحين ومال ذلك .

ونظراً لأن تطور الرأسمالية لم يكن عميقاً بدرجة كافية مما أدى إلى ظهور أنواع انتقالية عديدة ، كان الهرم الاجتماعي المميز للجمع الرأسمالي في روسيا أقل ترابطاً مما هو في أي مكان آخر . وكانت عناصره غير متماثلة داخلياً . ولم يكن الهيكل الاجتماعي بأسره قادراً على الصمود لضغط الصراعات الداخلية .

كانت قاعدة الهرم تتألف من البروليتاريا ، وهي طبقة العمال الذين يعملون مقابل أجر ، محرومين من وسائل الإنتاج ، والذين يكسبون رزقهم بكامله أو في معظمه عن طريق بيع عملهم . وفي عام ١٩١٤ كان عدد العمال يبلغ ٢٠ مليوناً (أي حوالي ٣٣ مليوناً إذا حسب أفراد أسرهم) وكانوا بذلك يمثلون نحو ثلث الأهلالي البالغين والذين يعملون ويكسبون . وكانت روسيا في هذا الصدد قريبة من مستوى فرنسا ، ومتأخرة قليلاً عن ألمانيا حيث كان العمال يمثلون حوالي نصف الأهلالي الذين يعملون ويكسبون ، ومتأخرة كثيراً عن بريطانيا والولايات المتحدة حيث تمثل البروليتاريا ثلثي الأهلالي العاملين . غير أن هذه الفجوة تتضاءل إذا استبعدنا سكان المستعمرات الروسية .

وكذلك لم تكن البروليتاريا الروسية متجانسة سواء من ناحية الأصل ، أو التركيب القومى ، أو التعليم ، أو المهارات ، أو الحالة المالية ، وليس ذلك غريبا فالطبقة العاملة فى المجتمع الرأسمالى محاطة بعدد من الفئات الائتمالية التى تكون مصدرا لزيادة صفوفها . وفى ظروف الانتعاش الاقتصادى فى روسيا كان لابد أن يتخذ هذا التطور أبعادا واسعة . وقد وصل عدد العمال إلى الضعف خلال فترتى الازدهار الصناعى الأخيرتين وحدهما .

وانضم إلى البروليتاريا ، إلى جانب أسر الطبقة العاملة ، أصحاب الحرف والمهن اليدوية ، وعلى الاخص الفلاحون الذين أصابهم الإفلاس . واحتفظ بعض العمال القادمين من المناطق الريفية بارتباطهم بالأرض وبالمزارع بصورة أو بأخرى . وكان للكثير منهم أسر أو أقارب فى الريف . وكان ذلك كله مجالا لإيجاد عملية التملك الخاص ونفسية البورجوازية الصغيرة بين بعض فئات العمال ، بما عاق تنظيمهم وتشكيل وعى بروليتارى ذى صبغة طبقية .

ورغم ما قد يبدو فى ذلك من تناقض ، فإن هذا الوضع الاجتماعى فى ظروف روسيا حول تلك العوامل السلبية بصورة جدلية إلى مصدر إضافى لتأثير البروليتاريا على جموع الفلاحين ، وأداة لتعزيز دورها القيادى فى حركة التحرير .

واحتلت البروليتاريا الصناعية مكانة خاصة بين العاملين مقابل أجر . وكانت تتألف من العمال المشتغلين فى الصناعات الكبيرة والقل والمواصلات ، وبلغ عددهم نحو أربعة ملايين ونصف مليون فى عام ١٩١٧ . وكانت تلك هى أفضج فئات الطبقة العاملة سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية . وكان معظمهم من العمال المهرة الذين لا يستغنى عنهم الإنتاج الصناعى الكبير .

ويمكن أن يقال إنهم يتحدرون من أصول عمالية ، لأنه فى بداية القرن

العشرين كان نصف من ينضمون إلى صفوفهم من أبناء أسر الطبقة العاملة .
وأكثر من ٩٠ ٪ من العاملين في الصناعات التحويلية كانوا يعملون بصفة دائمة
في المصانع . وبالتالي كانوا عمالاً حقيقيين متفرغين وليسوا أنصاف عمال وأنصاف
ولاحين كما يحيل بعض المفكرين الغربيين المتخصصين في الشؤون السوفيتية
إلى تصويرهم .

وكان الإنتاج الكبير يجذب العمال من جميع أنحاء البلاد ، ويوحدهم ،
ويدعم صفوفهم ، ويوسع نظرتهم . وكان هذا العمل يتطلب قدراً أكبر من
معرفة القراءة والكتابة ، وله مطالب أكبر من الناحيتين المادية والذهنية .
وكان المعدل الإجمالي لمعرفة القراءة والكتابة في روسيا منخفضاً جداً ، فلم يكن
يعرف القراءة والكتابة بين مجموع السكان أكثر من ٢٠ ٪ في بداية القرن
العشرين . لكن نسبة معرفتهما بين العمال الذكور كانت تبلغ حوالي ٦٠ ٪ ،
وتبلغ النسبة بين النساء العاملات ٣٥ ٪ . وفي سنة ١٩١٧ كان ٨٠ ٪ من
العمال الذكور وأكثر من ٤٠ ٪ من النساء العاملات يعرفون القراءة والكتابة .
وضعت بالتدريج إرباطات البروليتاريا بالأرض . ومن الأمور ذات الأهمية
في هذا المجال أن نحو ٦٠ ٪ من مجموع المصانع تقع خارج المدن ، ويرجع ذلك
إلى سياسة الحكومة التي بقيت حريصة لفترة طويلة على إبقاء الفلاحين في مناطق
الريف بالقوة . غير أنه لم يكن ثمة سبيل للوقوف في وجه التطور ، وإذا كان
الفلاحون ممنوعين من التوجه للصناعة فإن الصناعة نفسها انجبت إليهم .

والبروليتاريا هي الطبقة التي تخلق القيم المادية الحيوية للمجتمع ، وهي في
الوقت ذاته أشد الطبقات تعرضاً للاستغلال وحرماناً من وسائل الإنتاج .
ووضعها الاجتماعي يدفعها إلى النضال من أجل التحرر . وكان ذلك الصراع
مريراً في روسيا نظراً لقسوة الظروف التي تعيش فيها الطبقة العاملة . فكان يوم

العمل دائماً طويلاً جداً ، وطروف الحياة والعمل أسوأ بكثير منها في الدول
الرأسمالية الرئيسية . وذلك إلى أن الأجور أدنى بمدة مرات .

ولا شك في أن العمال حققوا بعض التحسن في ظروف حياتهم من خلال
الكفاح الشاق ولا سيما نتيجة لثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ . إذ نقصت ساعات
العمل ، وارتفعت الأجور بما يقرب من ٢٠ ٪ ، وطبق التأمين ضد العجز
والحوادث منذ عام ١٩١٢ . لكن إرتفاع الأسعار قبيل الحرب العالمية الأولى
لم يلبث أن ألهم الزيادة في الأجور . وانتشر العمل ساعات إضافية نظراً للبدء في
الاستعداد للحرب ، وبذلك عادت ساعات العمل الطويلة مرة أخرى . وعاد
الرأسماليون الذين شفوا من خوفهم من الثورة إلى الهجوم على المكاسب
الأخرى للعمال .

وازداد وضع العمال سوءاً نتيجة للكبت الشامل للأجماير العاملة ، والذي
تحول في ظل النظام الاستبدادي إلى سيطرة بوليسية مشينة وتحكم عشوائي .
وفرضت السلطات على النقابات التي تشكلت في سنوات الثورة وعلى الصحف العمالية
الشرعية اضطهاداً وحشياً .

وكان هناك قانون قدر صدر في عام ١٩٠٥ يحظر الملاحقة الجنائية بسبب
المشاركة في الإضرابات الاقتصادية ، ولكن أى إضراب كان يعامل في التطبيق
باعتباره جريمة ضد النظام القيصري . وكثيراً ما كانت الإضرابات تقمع بالقوة
المسلحة وقد ارتاعت روسيا بأسرها لمذابح العمال التي وقعت في مناجم الذهب في
منطقة ليناني بسيبيريا في عام ١٩١٢ .

وكان بعض أفراد الأسرة المالكة من حملة أسهم هذه الشركة التي تعمل في
استخراج الذهب . وقد بدأت الإضرابات عندما دعيت القوات لإطلاق النار

على مظاهرة سلمية للعمال المضربين الذين كانوا - جون لان الإدارة تباع لهم
لحوما فاسدة . وقتل في تلك الاضطرابات أو أصيب أكثر من ٥٠٠ شخص .
ورداً على الاحتجاجات العامة قال وزير الداخلية أ . ماكاروف بصراحة : لقد
فعلنا ذلك في الماضي وسنفعل ذلك في المستقبل .

وكان من أثر ذلك أن واجهت البروليتاريا عدوين : مستغلبها المباشرين
والنظام الاستبدادي الذي يحمي نفسه بوسائل وحشية . وفي ظروف
كهنه يتخذ كل إضراب ، حتى إذا كان إضراباً إقتصادياً ، طابعاً سياسياً
ثورياً بالضرورة . ونظراً لقسوة الظروف الاقتصادية وما صاحبها من افتقار إلى
الحقوق السياسية والمدنية ، ونظراً إلى أن الفئة المميزة من أرستوقراطية الطبقة
العاملة كانت ضئيلة جداً (لم تكن تتجاوز في روسيا ١٪ من العمال في مقابل
٩٪ في ألمانيا و ١٥٪ في بريطانيا) فقد مهد ذلك كله لظهور روح ثورية لدى
الطبقة العاملة الروسية أقوى منها لدى العمال في البلاد الأخرى .

ويميل المراقبون والباحثون الأجانب ، إما بسبب معلوماتهم السطحية عن
تاريخ روسيا ، أو بسبب رغبتهم في تقديم تحليل يتفق مع النظرية التي ترى أن
ثورة أكتوبر لا تعدو أن تكون حادثاً وقع بالصدفة ، إلى إبراز : جهل ،
العمال الروس . فهم يؤكدون أن مستواهم الثقافي كان منخفضاً ، وأن تنظيمهم
المبني لم يكن ملائماً .

ولا شك في أن البروليتاريا الروسية حرمت من فرصة الاستخدام الكامل
لمميزات الحضارة التي ألغها العمال في الدول الأخرى ، وإن كانت هناك بعض
المبالغة في تخلفهم الحضاري . غير أن العمال الروس خاضوا خلال فترة من الزمن
قصيرة نسبياً غمار مدرسه ممتازة للصراع الطبقي تمكنوا خلالها من اختبار العناصر
الأساسية في النظرية الماركسية الثورية والإيمان بها . وكان تركيز العمال في المصانع

الكبيرة من العوامل التي ساعدت على تنظيمهم وترابط صفوفهم . وترتب على ذلك ظهور عدد من التنظيمات العمالية القاعدية قبيل ثورة أكتوبر ١٩١٧ وكان عمال روسيا يسبقون البروليتاريا في أى بلد آخر من حيث نضجهم النضالي وخبرتهم بالكفاح الثوري . ففي العقد الأخير قبل الثورة قاموا بتنظيم إضرابات لم يسبق لها مثيل . ويظهر من البيانات الرسمية غير الكاملة أن عدد المضربين في الفترة بين ١٩٠٥ و ١٩٠٧ تجاوز ٤ ملايين ، كما بلغ عددهم في الفترة بين ١٩١٢ و ١٩١٤ ثلاثة ملايين على الأقل . وكان المستوى المرتفع للنشاط السياسي للمضربين داعياً إلى الدعشة . ففي عام ١٩٠٥ قام ما يقرب من نصف المضربين بنشاط صناعي لأسباب سياسية . وارتفع الرقم في ١٩٠٧ إلى ٧٣ ٪ ، ووصل في عام ١٩١٢ إلى ٨٠ ٪ .

وهناك من الناحية الموضوعية إتجاهان يمكن أن تسير فيهما حركة الطبقة العاملة في ظل الرأسمالية : إما تحسين ظروف العمال في إطار النظام القائم ، أو خوض عمار معركة حاسمه ضد هذا النظام . وقد ساد الاتجاه الثانى الثورى ، بشكل قاطع فى روسيا . وتبين أن البروليتاريا الروسية فى مجموعها معادية للانزعات الإصلاحية والقومية . ويرجع الفضل فى ذلك إلى حد كبير إلى حزب لينين البلشفي الذى كان له وضع قيادى فى حركة الطبقة العاملة الروسية . وكان ذلك هو العامل الذى مكن الطبقة من أن تصبح القوة الثورية الرئيسية فى المجتمع الروسى ، والنضال من أجل الديمقراطية والاشتراكية بشكل ثابت ودؤوب ، وأن تقود الجماهير العاملة والمستغلة الأخرى .

وكان يمثل الجزء الاوسط من الهرم الاجتماعى فى روسيا فئة يكاد يبلغ تعدادها ١٠٠ مليون نسمة من البورجوازية الصغيرة ، تمثل نحو ٦٠٪ من مجموع

السكان، وكان للفلاحين فيها وضع خاص يرجع إلى عددهم (ما يقرب من ٨٥ مليوناً) وإلى الدور الذي يلعبونه في حياة البلاد .

والفلاحون من حيث منشأهم هم من الطبقات التي تظهر مع المجتمع الإقطاعي ولاكنهم في عشية الثورة لم يكونوا متجانسين سواء من حيث حجم ملكيتهم أو من حيث وضعهم الاجتماعي . فقراء الفلاحين كانوا يشكلون حوالي ٦٥ ٪ من مجموع الأسر العاملة في الزراعة . وكان هؤلاء من أبناء البروليتاريا الريفية وأشباههم من العمال الذين يعملون مقابل أجر والذين يملكون في الوقت نفسه قطعة صغيرة من الأرض . فهم يقومون بزراعة أرضهم ولاكنهم لم يعودوا يستطيعون الوفاء باحتياجاتهم دون بيع قوة عملهم . وهؤلاء هم أقرب الناس إلى وضع الطبقة العاملة . وإذا ضم عددهم إلى عددها فإنهم يمثلون أكثر من نصف التعداد الإجمالي للسكان .

وكان ما يعرف « بالفلاحين المتوسطين » يشكلون فئة بين ، والسمة المميزة لهم أنهم كانوا قادرين على كسب رزقهم من الأرض التي يملكونها . غير أن وضعهم لم يكن ثابتاً ولا مستقراً على الإطلاق . فسيوف الخراب معلق فوق رقابهم على الدوام ، ولا سيما بعد تكرار فشل المحاصيل في روسيا . وإن كانوا في السنوات الطيبة لم يستطيعوا أن يحصلوا على بعض الإنتاج الفائض ، وقد يستطيع ألا يكفاه منهم الإنضمام إلى صفوف المزارعين الرأسماليين أو الكولاك .

وكان الرأسماليون الربفيون لا يمثلون غير نسبة ضئيلة من الباحية العددية — حوالي ١٥ ٪ من مجموع الحيازات ، لكنهم يمثلون أكثر من نصف الأراضي والماشية التي يملكها الفلاحون ، والأغلبية الكبرى من الآلات الزراعية ، وعمل الجانب الأكبر من العمال المعتمدين على الأجر . وقد كانت هذه في الواقع فئة بورجوازية وإن كانت ذات طابع فلاحى ولم تكن هناك روابط قوية تجمع

بينهم وبين المزارعين الرأسماليين سواء من حيث نشاطهم الاقتصادي أو تكوينهم الاجتماعي . فالأكولاك في استقلالهم انفراء الريف يعتمدون ، إلى جانب الوسائل الرأسمالية الخاصة ، إلى استخدام العمال المستعبدين على نطاق واسع ، وإلى الربا ، وهما ضمانان تميزان الرأسمالية في مراحلها المبكرة في الفرون الوسطى .

ونظراً لانشار الممتلكات الإقطاعية كان هناك تفرق ساد في الاراضى ولما كان الفلاحون في مجموعهم لم يحصلوا أبداً على حقوقهم الكامل كطبقة ، فقد بقى ملاك الاراضى الذين تدعمهم الاوتوقراطية المدو الرأسمالى للأغلبية الساحقة من الملاحين . وفي الوقت ذاته كان الصراع دائراً بين المبعمرعتين المتعارضتين في الريف . وازداد هذا الصراع حدة واتخذ أبعاداً واسعة خلال سنوات الإصلاح الذى طبقه « ستوايين » . وكانت فئات أهالى الريف القريبة من البروليتاريا في وضعها الاجتماعى تشكل أغلبية واضحة ، غير أن أوضاعها السياسية لم تكن مستقرة ، وذلك بسبب الطابع الاجتماعى المزدوج للفلاحين . فهم عمال وملاك في الوقت ذاته ، ولذا كانوا يتأرجحون دائماً بين البروليتاريا والبورجوازية .

وكان الفلاحون في حاجة إلى خبرة سياسية يكتسبونها بأنفسهم حتى يتمكنوا من اتخاذ موقف واضح واختيار حليف في كفاحهم من أجل الارض والحقوق المدنية والسياسية ، وبالنسبة لفئاتهم البروليتارية وشبه البروليتارية من أجل إعادة تشكيل المجتمع على أسس اشتراكية . ولعب اصلاح ستوايين دوراً هاماً في حماية تقزير المصير هذه . فقد بين هذا الإصلاح أن جمع الآمال المعنودة على حل المشكلة الزراعية « من أعلى » مقضى عليها بالفشل . وأدت التطورات التالية إلى إقناع الفلاحين بأنه يتعذر تحقيق أمانيهم حتى عن طريق ثورة بورجوازية ناجحة . وتبين أن ثورة أكتوبر الاشتراكية هي الثورة الوحيدة القادرة على حل المسألة الزراعية حلاً جذرياً .

وإذا كانت الفئات الديمقراطية غير البروليتارية من أهالى المدن أقل عدداً من الفلاحين ، وإسها رغم ذلك تشكل فئة اجتماعية غير قليلة الأهمية . فهي تضم أصحاب الحرف وصغار التجار وموظفى المكاتب والطلبة والمثقفين السكادحين . وكان عددهم يبلغ نحو ١٤ مليوناً أى ١٠٪ من مجموع السكان فى عام ١٩١٧ . وكان أصحاب الحرف والتجار فى الغالب قرييين من الفلاحين ، المتوسطين ، فى وضعهم الاجتماعى . غير أنهم كانوا يمرون بأوضاع مالية صعبة ، فكان دخلهم يقل عن دخل عمال الصناعة الماهرة . وكان موظفو المكاتب والمثقفون ، فيما عدا القطاع الأعلى الميسور ، يشغلون مكانة خاصة ، ووضعهم الاقتصادى يجعلهم أقرب إلى العمال ، ولكن أصلهم وأسلوب حياتهم وتكوينهم النفسى يجذبهم نحو الفئات البورجوازية .

وأدى هذا الازدواج إلى المواقف السياسية المتناقضة غير المستقرة لتلك الفئات عن السكان ، وكانت البروليتاريا والبورجوازية فى صراع مستمر للتأثير عليها . غير أن المثقفين الديمقراطيين ذوى الاتجاهات التقدمية ربطوا فى الوقت ذاته مصيرهم بمصر حركات التحرر والحركات العمالية .

وأخيراً فإن قمة الهرم تتألف من الطبقات المالكة والتى يبلغ تعدادها حوالى ٣٥ مليون نسمة ، أى ٢٠٪ من مجموع السكان . ولما كانت الرأسمالية قد ندمت بمعدل سريع جداً وتشكل المجتمع البورجوازى خلال فترة قصيرة نسبياً ، فإن هذه الطبقات أيضاً كانت تتألف من وحدات غير متجانسة .

وكانت البورجوازية التجارية والصناعية قد انتزعت منذ أمد طويل المواقع الرئيسية المسيطرة فى الحياة الاقتصادية . وكانت القوة الرئيسية للطبقة فى يد مجموعة صغيرة جداً من كبار الرأسماليين التى يتجسد فيها اندماج رأس المال الصناعى ورأس المال المصرفى والتى تشكل الأوليغاركية المالية . وتضم هذه الفئة أيضاً

أغنى أفراد الارستوقراطية من ملاك الاراضي والاغنياء المحدثين من رجال
الصناعة والمصارف .

ولم يكن هؤلاء جميعاً قادرين على ملاحقة العصر واكتساب الصفات العملية .
اللازمة للتأقلم بمطالب العصر الجديد . وبرز في هذا المجال الافراد المنحدرون
من أسر الموظفين الحكوميين والمتقنين الفنيين ، وكان من الطبيعي أن يمثلوا
أنشط أقسام الصفوة الرأسمالية الجديدة . وإذا كانوا لا يملكون رؤوس أموال
خاصة بهم فقد كانوا يملكون الخبرة والاتصالات بمجال الاعمال والدوائر
الحكومية . ولم يلبثوا أن جمعوا ثروات على وجه السرعة ، وخرج من بين
صفوفهم عدداً من كبار رجال الاعمال من الطراز الحديث .

غير أن الغالبية من البورجوازية الكبيرة والبورجوازية المتوسطة التجارية
والصناعية كانت تحت سيطرة الرأسماليين التجار القدامى الذين احتفظوا بتحيزاتهم
الفتوية القديمة وتنظيمهم إلى حد ما ، وتحت سيطرة بعض من جاءوا من أصول
فلاحية أو من البورجوازية الصغيرة في المدن . وكانت الاغلبية الواضحة بينهم من
التجار . وإذا كان الرأسماليون الروس يميلون في المجال الاقتصادي لاستخدام
الاشكال الفجة للاستغلال ، فقد كانت السمات المميزة لنظامهم السيامي هي روح
المحافظة والاعتماد إلى أقصى حد على استمرار الأوضاع القائمة .

وتنبع هاتان سمتان من عدد من العوامل ، في مقدمتها الظروف التي تشكلت
فيها طبقة أصحاب الاعمال في روسيا . فند الايام الاولى لنشأة البورجوازية كانت
تعتمد اعتماداً كبيراً على النظام الاستبدادي الذي يضمن للرأسماليين أرباحاً عالية
عن طريق إعطائهم المقود الحكومية ، والدعم ، والضمانات ، والحماية من
المنافسة الاجنبية بفرض الرسوم الجمركية العالية . كما لجأ الرأسماليون إلى
الارستوقراطية لتحميمهم من حركة الطبقة العاملة المتعاظمة . وأدى هذا الوضع إلى

« الطفولة ، الاجتماعية للبورجوازية ، وأبطأ من تكوين صفوفها كطبقة .
ولفترة طويلة اكتفى أفراد فئة رجال الأعمال بأن يكونوا مجرد مستشارين
تدعوهم الحكومة القيصريّة للتشاور معهم بشأن الجوانب المختلفة للسياسة الاقتصادية
أما الاستراتيجية الاقتصادية فكان يحددها النظام الاوتوقراطي كما كان الحال
في الماضي .

ولما أصبح واضحاً بجملاء متزايد أن القيصريّة تعوق التطور الاقتصادي وأنهم
غير قادرة على مواجهة الحركة المتعاظمة للطبقة العاملة ، بدأت المعارضة تنمو بين
صفوف الليورجوازية ، وبدأت في المطالبة بنصيب في إدارة شؤون البلاد .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان قد تحقق قدر كبير من التقدم
في تعزيز الكيان الطبقي للبورجوازية وتنظيمها السياسي . إذ كان قد نشأ نحو
١٤٠ اتحاداً لأصحاب الأعمال تمثل مصالح الصناعات المختلفة والمناطق الصناعية
الرئيسية ، كما بذلت محاولات لإنشاء اتحاد عام لأصحاب الصناعات . وتجاوز
العدد الكلي لهذه التنظيمات ١٧٠ جهة في أوائل عام ١٩١٧ . وكانت شسكتها
تغطي جميع القطاعات الرئيسية في الاقتصاد وجميع المناطق الصناعية في البلاد .
وأصبحت الليورجوازية الروسية أكثر نضجاً كطبقة ، وتجلى ذلك في سعيها
لتطبيق بعض الأساليب المستمدة من ترسانة أحدث الأسلحة الرأسمالية النمطية
في سعيها لتعزيز سيطرتها . وكان من مظاهر ذلك ، البراج التي وضعتها الأحزاب
السياسية والتي تشكل أكثرها في سنوات الثورة الروسية الأولى . ولكن جملة
القول أن التناقض بين القوى الاقتصادية النامية للبورجوازية والاحتفاظ بالسلطة
الكاملة بين يدي القيصريّة وأشدّ الفئات رجعية بين الملوك ، لم يؤد إلا إلى زيادة
بحق « الازمة عند القمة » .

وكانت الطبقة الحاكمة الاخرى هي النبلاء أصحاب الاراضى . وإذا كانوا قد فقدوا جزءا غير قليل من أملاكهم بعد إصلاحات عام ١٨٦١ ، فقد كانوا ما زالوا يشكلون قوة اقتصادية وسياسية كبيرة . ولاشك في أنهم لم يعودوا المالكين الوحيدين للنزارع الكبيرة منذ بداية القرن العشرين . فمن بين الاسر الـ ٢٨ ألفا التى تملك الارض كان نحو الثلث موافا عن يطلق عليهم « الملاك الجدد » ، والذين جاءوا من صفوف التجار أو الفلاحين . ومع ذلك فإن قيمة الملكيات الزراعية الكبيرة التى يحوزها النبلاء كانت تتجاوز مجموع رؤوس أموال الشركات المساهمة فى البلاد بنسبة ٥٠٪ .

وكان معظم الملاك يستخدمون وسائل متخلفة للزراعة . وكانت الإنتاجية منخفضة ، وكذلك الدخل الناشئ من الملكية الزراعية . غير أن الملاك . ولاسيما الفئة العليا الغنية منهم ، أسهمت بدور فى النشاط التجارى والصناعى . وقد حققوا أرباحا جمة من بيع الاراضى أو تأجيرها أو رهنها . وفى عام ١٩١٦ كانت أموال الرهون التى دفعت لملاك الاراضى منذ نهاية القرن التاسع عشر قد وصلت إلى رقم فلكى بمقاييس تلك الايام هو ٣٢٠٠٠ مليون روبل ، ووصلت الديون غير المسددة إلى حوالى ١٢٠٠ مليون روبل . ويظهر من هذا الوضع أن مصالح كبار الملاك والرأسماليين كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا .

غير أن ملاك الاراضى لم يستخدموا من تلك الاموال غير جانب ضئيل نسبيا فى أغراض إنتاجية : وقد تميز العقد الاخير لحكم الارستوقراطية الروسية بمعاصفة من الإسراف والبذخ تجاوزت الفخامة والترف الذين تميز بهما القرن الثامن عشر . إذ كان الربع ، وهو الدخل الخفيف الذى يحصل عليه كبار الملاك ، قد زاد زيادة ضخمة ، وكان لابد أن يؤثر ذلك على التركيب الاجتماعى للطبقة الحاكمة .

وانضم بعض الملاك الذين سلكوا السبيل الرأسمالى إلى معسكر البورجوازية بسبب آرائهم الحياضية ، ولكن أغلبيتهم العظمى ، وعلى الاخص النبلاء الذين يملكون المساحات الشاسعة ، لم يغفروا فى أى وقت موافقتهم الطبقيّة ، رغم اقترابهم من الرأسماليين من الناحية الاقتصادية . وكانت الملكيات الكبيرة لكل من النبلاء والملاك ، المحدثين ، تعتبر من الناحية الاجتماعية الاقتصادية من ركائز النظام الاوتوقراطية ومن العقبات الأساسية فى طريق تقدم البلاد . ورغم أن النبلاء الذين يملكون المزارع الشاسعة يشكون أفضلية واضحة بين الطبقات العليا المالكة ، إلا أنهم كانوا أقوياء بفضل ارتباطهم بالأسرة المالكة - فهم فى مقدمة رجال الامبراطورية ، وهم كبار موظفى الدولة ، كما أنهم أقوياء بتنظيمهم القوي وسيطرتهم على أجهزة الحكم المحلى والحكم الذاتى .

ولذا فإن الإغتضاء المتضارب المتناقض الذى كان قائما فى روسيا قبل الثورة . قد صاحبه تركيب اجتماعى لا يقل عنه تشابكا وتعقيدا . وكانت الاوتوقراطية القيصرية التى وصفها كثير من معاصريها بأنها « صرح شرقى » أشبه ما تكون بقلعة من قلاع القرون الوسطى ذات أسوار منيعة وأبراج عالية وأقبية عميقة يحتفظ فيها أصحابها بالبارود . وكان يمكن لأبسط شراية أن تفجر البناء كله وتحوله إلى شظايا . وكانت روسيا فى مطلع القرن العشرين تعيش على توقع ذلك الانفجار ..

كانت الخلافات القومية من العناصر البارزة في مجموعة التناقضات التي تمزق المجتمع الروسى . وقد كانت تزيد الوضع المتوتر تنافقا ، وأضفت على حركة التحرر قدراً كبيراً من الاتساع والعمق .

وكان لمشكلة القوميات دور خاص في روسيا . والدول التي نشأت في الغرب نتيجة للثورات البوارجوازية كانت كقاعدة عامة متجانسة من الناحية القومية . وفي تلك الدول تحولت مشكلة القوميات مع الزمن إلى مشكلة المستعمرات . وكان من السمات المميزة لمستعمرات الدول الغربية أنها تقع على مسافات بعيدة عن الدول الاستعمارية ، وأنها معزولة عنها بصورة مصطنعة نتيجة لحاجز اللون . أما في روسيا ، كما كان الحال في النمسا والمجر ، فقد تشكلت الدولة المركزية قبل استكمال الترابط الوطنى . وكان من أثر ذلك أن تشكلت في البلدين دولتان متعددتا القوميات وتضمان شعوبا من أصول متعددة . وقد أخضعت الطبقات الحاكمة للقومية السائدة فيها جانبا كبيرا من سكانها وعرضته للاضطهاد القومى . وكان من السمات الخاصة بروسيا أيضا أن مستعمراتها الشاسعة متاخمة للدولة الام بصورة مباشرة ، وأن مسألة القوميات ارتبطت ارتباطا وثيقا بمشكلة المستعمرات .

وكانت الامبراطورية الروسية من أكبر الامبراطوريات العالمية ، إذ بلغت مساحتها ٢٢,٤ مليون كيلومتر مربع ، أى ما يساوى سدس مساحة اليابسة في العالم . وكان تعداد سكانها في ١٩١٤ يتجاوز ١٧٠ مليون نسمة . والجانب الأكبر من السكان ، أكثر من ١٤٠ مليون نسمة ، يعيشون في روسيا الاوربية ، بينما لا يعيش في القسم الاسيوى من البلاد غير حوالى ٣٠ مليون نسمة .

وتقع معظم المناطق التي نقطتها القوميات غشيرة الروسية على أطراف

الامبراطورية . ففي الغرب كانت هناك فنلندا وشاطيء بحر البلطيق وبولندا وبلروسيا ولتوانيا واوكرانيا وملدافيا . وفي الجنوب هناك القوقاز الذي يتألف بدوره من مجموعة من العناصر القومية . وفي الجنوب الشرق هناك كزاخستان وآسيا الوسطى . كما أن هناك أقليات قومية أخرى تقطن سيبيريا والشرق الأقصى والشمال . وفي القسم الأوسط من البلاد ، بين المجرى الأوسط لنهر الفولجا وجبال الاورال كان هناك إقليم شاسع تقطنه مجموعات عرقية متعددة لا يشكل أى منها أغلبية متميزة .

وكانت الامبراطورية الروسية توسع حدودها سواء بالقوة المسلحة أو بالوسائل الدبلوماسية . وقد انضم سكان كثير من الاقاليم إلى الامبراطورية طواعية ، إما عن طريق إعادة توحيد القوميات ذات الاصل المشترك والتي كانت قد خضعت مؤقتا للسيطرة الاجنبية (الاوكرانيون والبلوروسيون واللتوانيون) أو لاعتبارات الامن القومى ، أو للفرار من العبودية أو عمليات الإبادة (الجورجيون والارمن والازريجانيون) . وانضمت مناطق أخرى مثل فنلندا وبولندا إلى الامبراطورية الروسية بمقتضى معاهدات دولية . وأضيفت مناطق غيرها إلى الامبراطورية تحت الضغط الدبلوماسى أو العسكرى أو نتيجة للعزو ، ومن أمثلتها كزاخستان وقيرغيزيا والمجموعات العرقية الجيلية فى القوقاز . كما لعبت دوراً كبيراً فى الاستيلاء على الاراضى الجديدة عمليات الاستكشاف التى قام بها الرحالة الاوائل والجهود التى بذلها التجار والمستوطنون الذين قاموا مثلاً باستثمار السهول الشاسعة قليلة السكان فى جنوب سيبيريا وفى الشرق الأقصى .

وكان اللقب الكامل لامبراطور روسيا يعبر عن الطابع متعدد القوميات للامبراطورية . إذ كان يضم عشرات الالقاب مثل امبراطور روسيا كلها وسيدها ، وملك بولندا وقازان واستراخان وسيبيريا ، والدوق الاعظم لفنلندا وسمولنسك ولتوانيا ، وكثير من الالقاب الاخرى .

وسجل التعداد الذى أجرى فى عام ١٨٩٧ ، ١٤٦ لغة ولهجة مستخدمة داخل الامبراطورية ، دون أن تشكل أى قومية منها أغلبية مطلقة . وكان الروس ، والمفترض أنهم يشكلون القومية السائدة ، يؤلفون أغلبية السكان فى المناطق الوسطى لروسيا الأوروبية وسيبيريا وتبلغ نسبتهم ٤٣ ٪ من المجموع . يليهم الأوكرانيون (١٧ ٪) والبولنديون (٦ ٪) والبللوروسيون (٥ ٪) واليهود (٤ ٪) والقرغيزيون والتتار (حوالى ٣ ٪ لكل منهما) والفنلنديون (حوالى ٢ ٪) والألمان والتتاريون واللتوانيون والبشكيريون والجورجيين والأرمن والمولدافيون والموردفينيون والإستونيون (بين ١ ، ٥ و ١٠ ٪ لكل منهم) ويؤلف الروس والأوكرانيون والبللوروسيون أغلبية نحو الثلثين . وكان لهم أصل مشترك وتاريخ مشترك ، ولغتهم وحضاراتهم متقاربة .

أما المناطق النائية التى تقطنها القوميات غير الروسية فتختلف فى أوضاعها السياسية والثقافية والدينية . وكان ذلك يتوقف إلى حد كبير على ظروف دخولهم الامبراطورية الروسية . فى بعض الحالات حافظت التمسرية على مؤسساتهم وقوانينهم التقليدية ، وأتاحت للأهالى المحليين قدرا من الاستقلال الذاتى فى الجوانب السياسية والثقافية والدينية . ومن أمثلة ذلك فنلندا وبولندا وبخارى وخيفا . غير أن الاندماج الكامل كان أكثر الحالات شيوعا . وعلى سبيل المثال فإن المناطق الأوكرانية والبللوروسية واللتوانية فقدت بعد الانضمام إلى الامبراطورية أسماءها السابقة ذاتها . ويصدق نفس القول على جورجيا وأرمينيا وأذربيجان وعدد من المناطق الأخرى التى تقطنها قوميات غير روسية . وفى معظم الحالات لم يكن التقسيم الإدارى يراعى التركيب القومى للسكان .

وكانت الأوتوقراطية الروسية تعتبر دائما أن الامبراطورية لا يمكن أن تتجزأ ، فهى كيان موحد . وكانت تعتقد أن من أهم الوسائل للإبقاء على هذه

الوحدة العمل على روسنة المناطق الدائية ، وقع الثقافة الخاصة بقومياتها ، والسعى إلى إذابتها إذا صح هذا التعبير . وسارعت القيصرية إلى الأخذ بالمبدأ الاستعماري القديم « فرق تسد » في إدارتها للدولة ذات اللغات المتعددة . فهي لم تسكتف بالاعتداء على حقوق الشعوب غير الروسية بل أثارت أيضاً المداوات بين الواحدة منها والأخرى ، وبذرت بينها الكراهية والشك والخلاف ، وشجعت المصادمات بين القوميات المختلفة ودفعته إلى المذابح وارتكاب الفظائع .

وبلغت المظالم السوفيتية في الدولة الكبيرة لدى الاوتوقراطية ذروتها في بداية القرن العشرين . وانعكس ذلك قبل كل شيء في ازدياد المركزية في السياسة الداخلية . وقد يبدو أن هذا الاتجاه استند إلى عامل موضوعي ، وهو ازدياد الروابط الإقتصادية بين الأقاليم المختلفة ، مما كان يحقق احتياج البلاد إلى النمو الإقتصادي الشامل . ولكن كان لابد في ظل نظام استبدادي ودولة بوليسية أن تصبح هذه السياسة استبدادية وقمعية ، وأن تؤدي إلى فرض المزيد من القيود السياسية والثقافية والدينية على الأقليات القومية . ومن ناحية أخرى فإن التطور الرأسمالي السريع عجل بتشكيل القوميات البورجوازية . كما أدى الوعي الوطني الذي ينمو بسرعة إلى ازدياد حساسية الشعوب المقهورة إزاء أي شكل من أشكال التمييز القومي .

وتباينت أشكال الاضطهاد القومي والاحتجاج عليه تبعاً لوضع المنطقة المعنية في النظام السياسي للأمبرطورية ومستوى تطورها الاجتماعي الإقتصادي . فبعض تلك المناطق ، كفنلندا وبولندا ومناطق البلطيق وبلاوروسا وأوكرانيا ، لم تكن تقل عن المناطق المركزية في روسيا من حيث تطورها الإقتصادي بل وكانت تسبقها أحيانا في كثير من المجالات . ولم تكن هذه المناطق مستعمرات بالمعنى الإقتصادي ولكنها أخضعت للقهر السياسي والثقافي والقيود الدينية . وكذلك

اختلفت أشكال الاضطهاد الوطنى ومدى شدته . فوضع فنلندا مثالا حددته مبادئه
نصت على قدر كبير من الاستقلال الذاتى السياسى (كان لفنلندا برلمانها وجيشها
وعملتها وقدر من الحقوق السياسية والمدنية) وكان ذلك وضعاً ممتازاً إلى حد ما .
وكان للنبله الألمان وصغار الحائزين فى المدن عدد من الامتيازات فى مناطق
الباطيق ، ولا سيما فى نظام الحكم الذاتى المحلى والمحاكم . وكانت القيصرية تسمى
لأن تجعل الظروف المحيية فى تلك الأنحاء مماثلة للظروف فى بقية روسيا . وتبجلى
الاضطهاد القومى فى أوكرانيا وبللوروسيا ولتوانيا بأوضح صورة فى القيود التى
فرضت على اللغات المحيية بل والمعاقبة على استخدامها . أما بولندا فقد غير اسمها
وأصبح إقليم الفستولا ، وحاولت الاوتوقراطية أن تجعل منها إقليماً عادياً من
الأقاليم التى تقع على أطراف الامبراطورية . وألغى كل ما كانت بولندا تتمتع به
فى الماضى تقريباً من استقلال ذاتى انتقاماً من الانتفاضة التى وقعت فى عام ١٨٦٣ .

غير أن أشد أشكال الاضطهاد القومى كانت تمارس ضد الشعوب التى تقطن
المناطق المستعمرة المتطرفة فى الامبراطورية . وكانت روسيا تشغل المكان الثانى
فى العالم من حيث اتساع ممتلكاتها الاستعمارية (بعد بريطانيا) وتشغل المكانة
الثالثة من حيث تعداد سكان تلك الامبراطورية (بعد بريطانيا وفرنسا) .
وفى عام ١٩١٤ كان مجموع مساحة المستعمرات الروسية ١٧ و ٤ مليون كيلومتر
مربع ، ومجموع سكانها ٢٣ و ٢ مليون نسمة . وكانت تلك المساحة تزيد عن ثلاثة
أرباع مساحة البلاد ، وتمثل أكثر من خمس التعداد السكانى فيها . غير أن
الاضطهاد الاستعمارى لم يكن مطابقاً دائماً للاضطهاد القومى .

فالسبيل التاسعة فى أوكرانيا وشمال القوقاز وجانب كبير من سيبيريا كانت
نماذج لنوع معين من الاستعمار . فنظراً لقلة عدد الأهالى الاصليين واتساع
مساحات الاراضى غير المستغلة ، كانت تلك المناطق هدفاً للاستغلال . وكان

معظم المتوطنين فيها من الفلاحين الروس والاوكرانيين والبيلاوروسين .
وفي سيبيريا مثلاً كان هؤلاء يمثلون ٨٥٪ من الاهالى . وكانت تلك مناطق
زراعية يسود فيها الاقتصاد الاستعماري بشكل واضح . ولكنها رغم خضوعها
للاضطهاد الاستعماري المعتاد لم تكن تختلف في تركيبها القومى عن المناطق
الوسطى للبلاد .

وهناك طراز آخر من المستعمرات يتمثل في المناطق المتطرفة في الامبراطورية
والتي يتألف سكانها في الاغلب من عناصر غير روسية ، كأبناء القوقاز ، وآسيا
الوسطى وكازاخستان ، والشمال الأقصى ، وأجزاء من سيبيريا ، والاراضى
الواقعة على امتداد نهر الفولجا وجبال الأورال . وحتى إلى عهد قريب كبداية
القرن العشرين ، كان بمض تلك الشعوب لا يزال في مرحلة التطور السابقة على
الرأسمالية بل والسابقة على الإقطاع . وفي تلك المناطق اجتمع الاضطهاد
الاستعماري مع الاضطهاد القومى . وكانت وسائل الاستغلال شبه إقطاعية ومميزة
للمراحل الأولى للرأسمالية : مصادرة الاراضى ، وفرض الضرائب العينية
وما إليها ، مصحوبة بالهيب السافر للاهالى المحليين من جانب الإدارة الاستعمارية
والارستوقراطية المحلية . وتفاقم الاضطهاد على الأساس الحضارى والقومى
في تلك المناطق نتيجة لعدم تمتع الجماهير العاملة بأى حقوق سياسية أو مدنية .
وكان الاستبداد الإدارى للسلطات القيصرية في تلك المناطق لا يقف في الواقع
عند حد . وكانت وزارة الحرب هي التي تحكم المستعمرات . ولم يكن بها محاكم
مدنية من الناحية العملية ، وكانت الاغلبية الساحقة من الاهالى المحليين تعاني
من الأمية .

وعندما نمت الرأسمالية الروسية ، من ناحية الإنساع ، وامتدت شبكة الطرق
الحديدية ، ولانجذبت المناطق النائية ودخلت ضمن النظام الإقتصادى الشامل

في روسيا ، وتحولت إلى مورد للواد الخام للصناعات في المناطق المركزية . وأصبحت آسيا الوسطى والترانسقاز مثلاً من المراكز الأساسية للقطن الذي تستخدمه مصانع الغزل . وأصبحت سيبيريا وكازاخستان هي المورد الأساسي للحبوب الرخيصة واللحوم والزبد والجلود والصوف . وظهرت مراكز أخرى للمدين واستخراج البترول في عدد من المناطق ، وأصبحت مدينة باكو في أذربيجان مثلاً من أكبر مراكز استخراج البترول في العالم . واكتسبت مناجم النحاس والمنجنيز في أرمينيا وجورجيا ، ومناجم الذهب في سيبيريا ، أهمية اقتصادية كبرى . وفي بداية القرن العشرين كانت المناطق الإستعمارية المتطرفة تمثل نحو ٤٥٪ من إجمالي الإنتاج ، ونحو ربع العاملين في صناعات التعدين . وكذلك تطورت الصناعات التحويلية وإن كان ذلك بسرعة أقل . وجملة القول أن الصورة كانت هي الصورة التقليدية للعلاقات بين المستعمرات والدولة الكبرى .

ولكن لما كانت المستعمرات والدولة الكبرى داخل الإمبراطورية الروسية متجاورة ، كان ذلك مصدراً لسمات مميزة للاضطهاد في المناطق المتطرفة غير الروسية . ولم يكن الدور الذي لعبه هذا العنصر في حياتها دوراً بسيطاً أو متماثلاً . وكان اجتماع الاضطهاد القومي والاضطهاد الاستعماري سبباً في تفاقم ما يعانيه الأهالي المحليون من بؤس . وأدت سياسة النهب التي تسير عليها القيصرية والرأسماليون الكبار إلى إبطاء تطور أولئك الأهالي . ومع ذلك فإن الدخول إلى روسيا كان له دور إيجابي من الناحية الموضوعية بالنسبة لعدد من القوميات غير الروسية ، ولاسيما القوميات التي لم تكن قد تطورت كثيراً . فقد أُنقِيت العبودية وسلطنة الملائكة والخانات ، ووضعت حدود لملك السادة الإقطاعيين المحليين ورؤساء القبائل ورجال الدين الأرض . وبدأت ثقافات القوميات المختلفة في الامتداد إلى القوميات الأخرى وإثرائها . وساعدت هذه العوامل مجتمعة

في حزب تلك الشعوب إلى إطار النظام الرأسمالي لروسيا ، بكل ما ترتب على ذلك من نتائج مثل زيادة سرعة التلور الاجتماعي ، الإقتصادي والثقافي ونشوء هيكل اجتماعي رأسمالي . وكانت أهم النتائج بلا حداث ، مشاركة الجماهير السكادحة في تلك المناطق في الكفاح التحريري المناهض الذي يخوضه شعب روسيا . وبذلك اندمجت حركات التحرر الوطني في المعرى الرئيسي للنضال الثوري لسكر روسيا ضد القيصرية .

وكان حل مسألة القوميات ومسألة المستعمرات يتوقف إلى حد كبير على النظرة الطبقة . ورغم أن القوميات المختلفة كانت تختلف في أوضاعها وفي مستوى تطورها ، ورغم أن تميز وضعها كان من الأمور المعيرة والمعقدة ، فإن روسيا متعددة القوميات لم تتحول إلى بابل . وتاور اتجاهان مختلفان لحل هاتين المسألتين .

فنجد من ناحية أن الرأسمالين المحليين والارستوقراطية المحلية ، بالرغم من كل معارضتها بل وعدائها للقيصرية ، كانت تتجه في المدى الطويل إلى التحالف مع الطبقة الحاكمة الروسية . وكان المعتاد ألا تتجاوز مطالبها تقديم التماسات بتطبيق الاستقلال الذاتي الثقافي والقومي في إطار الإمبراطورية الروسية . وهذا الموقف من القضية ، الذي ينطوي على إنكار فعلي لحق الشعوب في تقرير مصيرها جعل من المتمذر تسوية مسألتى القوميات والمستعمرات في روسيا بمبادرة من جانب البورجوازية أو تحت قيادتها .

ومن ناحية أخرى فإن جموع الجماهير العاملة في المناطق غير الروسية اتجهت نحو التحالف مع العمال والفلاحين الروس بفضل الاتحاد الوثيق في مصالحهم الاجتماعية وكان ذلك أمراً طبيعياً . فلاستبداد القيصرى مهما تسكن قسوته ومهجته إزاء الشعوب غير الروسية ، كان بوجه عام قاسياً بنفس الدرجة في معاملته للجماهير السكادحة في أنحاء الإمبراطورية الروسية . فالجميع كانوا متساويين في القدام

الحقوق ورغم أن الروس كانوا يعتبرون من الناحية الرسمية هم الأمة الحاكمة ، فلم تكن لهم في الواقع أى امتيازات عن غيرهم من القوميات . وكانوا هم أيضا محرومين من الإطلاع على كنوز ثقافتهم وحضارتهم . ورغم أن روسيا قدمت للعالم كتابا عظاما مثل ليون تولستوى وانطون تشيكوف وفيودور دوستوفسكى ومكسيم جوركى ، كان معظم الروس أميين . وفي مطلع القرن العشرين كانت روسيا تحتل المركز الثانى والعشرين فى أوروبا من حيث عدد الطلبة بالنسبة لكل مائة من السكان ، والمركز الخامس عشر من حيث الإنفاق على الفرد من أجل التعليم . فإذا قلنا إن روسيا كانت سجن الشعوب فإن الشعب الروسى العظيم كان أكبر السجناء . ولذا فإن أفكار شوفينية الدولة الكبيرة التى حرصت السلطات القيصرية على نشرها لم تجد تربة صالحة لدى الجماهير العريضة من الشعب كما أن الدعاية القومية التى سمعت لترويجها البورجوازية والارستوقراطية المحلية فى المناطق غير الروسية فشلت بدورها . وكانت العلاقات الزراعية والاستغلال الرأسالى فى المناطق غير الروسية متفقة فى الجوهر مع مثيلاتها فى الأقسام المتوسطة من روسيا ، وكان لهذا العامل أثره الكبير .

ومن ثم نجد فى روسيا أن القضايا الإجتماعية الإقتصادية والمشاكل الطبقة قد تقدمت على القضايا القومية ، إذ كان لهذه الأخيرة أهمية تالية ومشتقة فى الكفاح الإجتماعى ، وكان حلها متوقفا على حل القضايا الأساسية .

وكان من أثر ذلك أن تكونت البروليتاريا الروسية من قوميات متعددة ، وكان كفاحها أميا بطبيعته . وقد اتخذ الماركسيون الثوريون موقفا ديموقراطيا أصيلا فى سعيهم لحل مسألة القوميات . وترتب على ذلك أن كانت الطبقة العاملة ، لا البورجوازية ، هى قائدة الحركة الديموقراطية فى روسيا من أجل المساواة القومية والحرية الكاملة لكل شعب فى تقرير مستقبله .

ثانيا : الإناء يغلي :

الطبقات العليا والدنيا

المعسكر الحاكم :

لما كان هناك ارتباط وثيق بين القضايا المتبقية من الثورة الديمقراطية البورجوازية ونضج الثورة الاشتراكية ، كانت هناك علاقات خاصة مميزة بين القوى المتصارعة على المسرح السياسى فى روسيا ، وكان من سمات الثورات البورجوازية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالمواجهة بين معسكرين رئيسيين . معسكر المدافعين عن النظام القديم ومعسكر العاملين على تحطيمه . ولكن كانت فى روسيا فى مطلع القرن العشرين ثلاثة معسكرات سياسية متنازعة : الدوائر الحكومية ، والعناصر البورجوازية الليبرالية ، والقوى الديمقراطية الثورية التى تقودها البروليتاريا .

وكان أنصار النظام القديم البالى يشكون المعسكر الحكومى الذى يضم الملكية الاوتوقراطية . ورغم أن موقف القيصرية كان قد ضعف فقد كانت لاتزال تمثل قوة بحسب حسابها . وترجع قوتها الى حد كبير الى أن الارستوقراطية كانت تستخدم القطاع الرأسمالى الحكومى لدعم مواقعها الاقتصادية الى جانب مساحات الارض الشاسعة المملوكة للحكومة والموروثة من العصر الإقطاعى ويشمل ذلك عشرات المصانع المملوكة للحكومة ، وأكثر من ثلثى الخطوط الحديدية ، وشبكة التسليف الواسعة التابعة لبنك الدولة ، وماليتها . وكانت تحت تصرفها قوة الدولة بكاملها وهى جهاز هائل من الموظفين والشرطة (كان لدى روسيا فى بداية القرن العشرين ٣.٨٤٠.٠٠٠ موظف وأكثر من ١٠٠.٠٠٠ من رجال الشرطة) وجيش يبلغ تعداداه

نحو مليون ونصف مليون جندي يقوده ١٠٠٠٠ ضابط ينحدرون من أسر النبلاء
وكان هناك أيضا ٢٠٠٠ من رجال الدين الذين يعملون للتأثير على عقول
جماهير الشعب يوما بعد يوم لإقناعها بأن القيصر هو أبو الامة ، وأنه يعدل بين
الفقراء والاغنياء ، ويدعون إلى الطاعة العمياء لأولى الامر .

وكان النبلاء يشكلون القاعدة الاجتماعية للقيصرية . وقد احتفظوا ، واقامهم
الاساسية في جهاز الدولة والجيش وأجهزة الحكم الذاتي المحلي . كما أن كبار
رجال الاعمال الذين اعتمدوا في نشاطهم على العقود الحكومية ، أيدوا الاوتوقراطية
لأنها وفرت للرأسماليين أرباحا هائلة ، وكان جيشها يحميهم من أى مظهر من
مظاهر سخط العمال . واستمرت الحكومة القيصرية فترة طويلة في استغلال
المشاعر العائليه . وأوهام العلاقة بين الأب والأبناء ادى جماهير الشعب
ولا سيما الفلاحين .

وأخيرا وليس آخرا ، ففي اللحظات الحاسمة عندما كانت القيصرية تجد نفسها على
شفا الإفلاس المالى ، كان الرأسماليون الغريبيون يمدون لها يد المساعدة . وعلى
سبيل المثال ، فعندما كانت ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ في ذروتها قدم رجال البنوك
الفرنسيون للحكومة القيصرية قرضا بحوالى ١٠٠٠ مليون روبل كارله أثر كبير في
تحسين موقفيها .

غير أن الوضع العام للقيصرية أخذ في الاهتزاز بشكل متزايد . فبعد عام
١٩٠٥ بدأت الارض تميد تحت أقدامها ، واضطرت الاوتوقراطية إلى اللجوء
إلى المناورات البونابارتية . إذ كانت أوهام الفلاحين عن القياصرة قد بدأت
تنبده ، وعلمت الحكومة آمالها على المزارعين الاغنياء ، الكولاك . واستغلت
المعارضة البورجوازية خطر الثورة فطالبت بنصيب في إدارة شؤون البلاد ،
وحاولت القيصرية أن تخفى استبدادها بورقة التوت التى تمثلت في الحكم البرلماني .

ومن خلال التلاعب بالقانون الانتخابي تمكنت الحكومة من الوصول إلى تركيب مقبول لمجلس الدوما ، وحاولت أن تقيم تحالفاً وثيقاً داخله بين الرأسماليين والملك . وكان النظام الاوتوقراطي يأمل أن يتمكن من حل المشاكل الموضوعية للثورة من أعلى ، كما فعل من قبل بسمارك « المستشار الحديدي » في روسيا .

وكان صاحب السياسة الحكومية الجديدة ، ب . ن . ستولين ، يؤكد أن الإصلاحات ضرورية وحتمية ، لأن الصراع المباشر ضد الثورة لن يتمكن في أحسن الأحوال إلا من إزالة آثارها ولكنه لا يستطيع أن يزيل أسبابها .

وكانت السياسة التي دعا إليها ستوليين تتطلب من الاوتوقراطية أن تتقدم خطوة أخرى في اتجاه الملكية البورجوازية مع الاحتفاظ بالمظاهر الأساسية لسلطة القيصر . وكان المفروض أن يؤدي الإصلاح الزراعي إلى تخفيف حدة التناقضات الطبقية في الريف وأن يقلل أو ينهي التناقض الأساسي للحياة في روسيا ألا وهو التناقض بين الملكية الإقطاعية للأراضي والزراعة المتخلفة وبين لرأسمالية الصناعية والمالية الحديثة . غير أن الآمال عقدت على الفلاحين الأغنياء ، الكولاك ، باعتبارهم ركيزة اجتماعية جديدة للاوتوقراطية . كما أملت الحكومة أنها عن طريق إدخال حد أدنى من الإصلاحات البورجوازية الليبرالية ، في المجال السياسي يمكن أن تدعم مركزها ، معتقدة بحق أن الليبرالية البورجوازية المعادية للثورة هي تيار محدود وليس له منطق متسق .

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى تبين أن الإصلاح الزراعي الذي أعده ستوليين لم يحقق ما عقد عليه من آمال ، وأن العناصر الرجعية بين كبار الملاك رفضت أن تقدم أي تنازل للمعارضين البورجوازيين . بل وظهرت معارضة يمينية ، ووقف الملاك الرجعيون ضد خطط الحكومة الرامية إلى إدخال بعض الأساليب

المصرية على الإدارة المحلية وأجهزة الحكم الذاتي والقضاء ، ورأوا في هذه الإصلاحات محاولة للحد من مكانتهم وتفوذهم .

وسمى أنصار الأوتوقراطية ، الذين عرفوا من قبل مخاطر الثورة ، إلى النجاة عن طريق تنظيم صفوفهم . فتكون عدد من الأحزاب والتنظيمات اليمينية المتطرفة من الملاك ذوي العقيدة الملكية ، كان من بينها : مجلس النبلاء المتحدين ، و : الحزب الملكي الروسي ، و : المجلس الروسي ، و : الحزب الوطني ، ورغم وجود خلافات بسيطة حول بعض نقاط برامج هذه الأحزاب ، فقد كانت جميعها متفقة على شيء واحد ، هو ضرورة المحافظة على سلطة أوتوقراطية غير محدودة ، وعلى روسيا : موحدة وغير قابلة للتجزئة ، ، وعلى : الملكية الإقطاعية وامتيازات النبلاء .

وقام : مجلس النبلاء المتحدين ، بدور القيادة الفكرية ومركز التنسيق لجميع الأحزاب اليمينية . وقد تشكل هذا المجلس في عام ١٩٠٦ ليضم الجمعيات الإقليمية السبع والثلاثين للنبلاء ، والتي كانت تمثل عصب فئة النبلاء منذ نهاية القرن الثامن عشر . وكان الجهاز القيادي لهذا التنظيم ، وهو المجلس الدائم ، لاكثر الملاك ثروة ونفوذاً ممن يتصفون عموماً بالاتجاه السياسي إلى اليمين المتطرف . وقد تجسد التكوين الاجتماعي والسياسي لهذا الجناح من القوى الرجعية للملاك ، في شخص الرئيس الأول للمجلس ، الكونت ١٠١ . بوبرنسكي ، الذي كان ينتمي إلى واحدة من أغنى أسر النبلاء وأكثرها أرسوقراطية وكان الكونت بوبرنسكي يملك مزارع شاسعة ومعامل لتكرير السكر ، وكان قد اكتسب سمعة واسعة باعتباره من الرجعيين المتعصبين . وخلفه في رئاسته المجلس شخصيات أخرى لا تقل عنه رجعية مثل ا . ب . ستركوف و د . ف . سامارين . وكان كل منهما يملك بين ٦٠ و ٧٠ ألف هكتار من الأرض .

وكان مجرد قيام مجلس النبلاء المتحدين ، كتنظيم للطبقات الحاكمة ويمثل
الكبار الملاك الروس ، يجعل له وزناً و نفوذاً خاصاً في المجالات السياسية .
ويزداد هذا النفوذ نظراً لأن كثيرين من أعضائه يشغلون مناصب حكومية هامة ،
ولهم ارتباطات واسعة مع البلاط الملاكى ومجلس الدولة ومجلس الدوما . ومن
الأمثلة الواضحة على ذلك الكونت بوبرينسكى نفسه ، إذ كان في أوقات مختلفة
عضواً في مجلس الدوما ، ومجلس الدولة ، ونائباً لوزير الداخلية ، ووزيراً للزراعة ،
ورئيساً لمجلس إدارة البنك الإنجليزى الروسى ، بالإضافة إلى شغله مكاناً رفيعاً في
البلاط الملاكى . وكان من الحقوق الرسمية للرئيس الدائم للمجلس أن يقدم تقاريره
إلى القيصر مباشرة بل إن كثيرين من الشخصيات البارزة الأخرى في المنظمة ممن
يشغلون مناصب عالية في البلاط كانوا يستلزمون بسهولة أن يتصلوا بالامبراطور .
وشكل الأعضاء اليمينيون في مجلس الدولة ومجلس الدوما أجنحة أخذت
تصرف كما لو كانت أحزاباً سياسية . وكان اليمينيون قد عارضوا في البداية تشكيل
أى أجهزة نيابية ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن مجلس الدوما يمكن أن يستخدم
لمعرض آرائهم والضغط على الحكومة أما الأرستوقراطية فركزت نشاطها السياسى
في مجلس الدولة . وبينما نحن أن نلاحظ أن مجلس الدولة لم يصدر قانوناً واحداً
يمكن أن يضر بمصالح الملاك ولو ضرراً بسيطاً .

وكان لليمينيين أيضاً « أبطالهم » في مجلس الدوما الذى يتطلب بعد القدرة على
الخطابة والكلام . وكان قائدهم ن . م . ماركوف من كبار الملاك في مقاطعة
كورسك ، ومن المعروفين بآرائهم الرجعية والغبية . وكان من عادته أن يقول
مباهياً إن الشيء الوحيد الذى يقف إلى يمينه هو جدار قاعة المؤتمر . وكان صوته
الاجش يتبادل مع الصوت الحاد لزميله ق . م . بوريشكفيتش « أكثر النبلاء
روسية » ، والذى كان يملك مزارع في بسارابيا ، كان يشغل إحدى وظائف
وزارة الداخلية .

وانتهر هذان اليمينيان بخطبهما المستيرية والتي اتخذت لهجة تجرمية. بي بعض الاحيان ضد الاعضاء اليساريين في الدوما، وضد الليبراليين، بل وضد الوزراء الحكوميين الذين اتهموا « باللين ». وذكر بوريشكيفيتش في إحدى خطبه صراحة أن اليمينيين يعتبرون حكومة ستوليبين، التي كانت تحاول أن تطبق ما وصف بأنه نظام دستوري، عدوهم السياسي. ويمكن أن ندرك مغزى هذه العبارة عندما نذكر أن جميع الوزراء كان القيصر قد اختارهم بنفسه.

ولم يقف ماركوف وبوريشكيفيتش عند حد أفوالهما المشينة في الدوما، بل إنهما تمارنا مع الدكتور ١٠١ دوبروفين، وهو شخص له ماض مشبوه، في تشكيل جماعات يمينية شوفينية متطرفة مثل « اتحاد شعب روسيا، و «رابطة الملاك ميخائيل»، وقد أطلقت هذه التنظيمات على نفسها اسم «السود المائة» (وهو الاسم الذي كان يطلق على وحدات الحرس الخاص للقيصر في الأمانة القديمة)، وكان هدفها الوقوف ضد الحركة الثورية وجمع أوسع الفئات الممكنة من أبناء المجتمع الروسي تحت راية الملكية. وكانت بذلك تحاول إحياء الأوهام عن القيصرية لدى أشد الفئات جهلا وتخلفا في المدينة والريف. وليكون لندائهم جاذبية شعبية أدركت في برامجهما عدداً من الأقوال الشبيهة بما تنادى به بعض الأحزاب اليسارية وحرصت بوجه خاص على كسب تأييد «الطبقات الدنيا»، وعلى سبيل المثال فقد وعدت الفلاحين بالمساعدة في شراء الأراضي المملوكة للحكومة بشروط مبسرة. كما طالب اليمينيون تطبيق ساعات عمل أقل. ووضع نظام حكومية للتأمين الاجتماعي، وتنظيم أفضل للعمال، الخ.

وكان يقولان الثاني نفسه ينظر بعطف شديد إلى السود المائة ويرتدى شارة العضوية في اتحاد الشعب الروسي. وكانت هاتان المنظمتان تمولان من المصاريف المبررة للحكومة، ولحكتهما لم تتجحا في أي وقت في تشكيل قاعدة عريضة لنظام الملكية الأوتوقراطية بين الجماهير المادية. وكانتا تعلنان أن النضال ضد الثورة

هو الهدف الرئيسى لكل منهما . ونظمت بعض فروعها المحلية سلسلة من عمليات الاضطهاد لليهود والاعتقال للثوريين البارزين والسياسة الليبراليين . بل وقد وضعتا الخطط لاعتقال بعض كبار الموظفين كانت آراؤهم تبدو شديدة التحرر بالنسبة لطائفتي المندمجين . بل إن هناك أسبابا تدعو للاعتقاد بأن « السود المائة » كانت لهم يد في اعتقال ب . ا . سترولين في عام ١٩١١ . وكانت هذه المنظمات تعد بعض أعمالها بمعرفة البوليس بل وبالتعاون معه . وطبقا لما قاله رئيس الوزراء السابق س . ي . ويت كان من الصعب التمييز بين عملاء البوليس السرى وإدارة الأمن وأعضاء ما يسمى باتحاد الشعب الروسى .

وكان السرد المائة يجمعون قوائم الاساسية من بين صفوف البورجوازية الصغيرة والعناصر التى فقدت انتماءها الطبقي . ويحاول قادتها من وقت لآخر الإيهام بأن لها تأييدا شعبيا واسعا عن طريق تنظيم مظاهر الاحتجاج « الجماعية » من خلال فروعها المحلية ضد ما تبديه الحكومة من رغبة للسير فى الاتجاه الليبرالى ، أو من ناحية أخرى بإرسال رسائل تهنته للقيصر على كل خطوة « حازمة » يتخذها .

وكان من المحاولات الأخرى لاجتاد قاعدة شعبية لأحزاب الملاك ، تشكيل « اتحاد عموم روسيا لملاك الأراضى » . وكان المقصود إجتذاب الفلاحين الأغنياء إليه . غير أن الاتحاد مات بهدوء بعد خمس سنوات ليعود إلى الظهور مرة أخرى على المسرح السياسى فى عام ١٩١٧ ليلقى نفس المصير . وبعد أن أدت الأحزاب النيمانية مهمتها فى نعنة القوى الرجعية فى السنوات المضطربة للثورة الروسية الأولى ، وأحبطت جميع المحاولات لإدخال قدر من الحرية على النظام ، بدأت فى الحد من نشاطها مع اقتراب الحرب العالمية الأولى .

ذكر ب . ن . ميليوكوف زعيم الحزب الدستوري الديموقراطى فى كلمة ألقاها فى حفل استقبال أقامه عمدة لندن فى صيف عام ١٩٠٩ أن المعارضة فى روسيا سوف تبقى معارضة صاحب الجلالة وليست معارضة له . ولم تلبث هذه العبارة أن ذهبت مثلا . فهى تتضمن تغييراً بسيطاً فى معنى كلمة « معارضة » . فهى لم تمد التواء أشخاص يتهمون النظام القائم ويدفعون القيصر ووزرائه إلى الخوف والارتجاف ، بل هم حفنة من ذوى النوايا الطيبة من ينتقدون « تجاوزات » النظام الأوتوقراطى ، ويحاولون بأن يأخذ خطوة بعد خطوة بالأساليب العصرية وفقاً للنمط البريطانى « الكلاسيكى » . وخلال الفترة التى عاشتها الليبرالية الروسية كانت علاقتها « بالسلطة التاريخية » ، وهو الوصف الذى أطلقته على النظام القيصرى ، فى تغير مستمر . فهى أحيانا تكنى باللون « الوردى » ، بل واللون « الأحمر » تحت تأثير الهبات الثورية ، ثم تعود فتغير جلدها وتتوب عما أبدت من حماسة فى المعارضة . غير أن موقفها العام كان يتفق فى مجموعه مع العبارة البليغة التى ذكرها ميليوكوف .

وكان من مصادقات التاريخ أن الأيديولوجية الليبرالية ، وهى أيديولوجية بورجوازية بطبيعتها والطبقة الرأسمالية ، قد عاشا فى روسيا فى وقت واحد ولمدة طويلة دون أن تلتفت إحداهما إلى الأخرى . فقد ظهرت الأفكار الليبرالية منذ النصف الثانى للقرن الثامن عشر فى ظل كاترين الثانية . وانتشرت هذه الأفكار مادة أكثر من قرن بين المفكرين التقدميين المنحدرين من النبلاء والذين كان رد فعلهم عنيفا إزاء الاستبداد الأوتوقراطى . أما التجار وأصحاب المصانع ورجال البنوك وغيرهم من رجال الأعمال فكانوا حتى عام ١٩٠٥ يخافون كلمة « الليبرالية » ، ذاتها كما يخافون الماعون ، وبقوا رعايا مخلصين لسيدهم صاحب التاج . ولذا كانت الحركة الليبرالية فى روسيا فى النصف الثانى من القرن الماضى مركزة فى

بجالس الذمستفو - الاجهزة المحلية للحكم الذاتي - والتي نشأت في معظم مقاطعات روسيا الوسطى في عام ١٨٦٤ . وكان الدور القيادي فيها للنبلاء من ملاك الاراضى ، بينما ساد المثقفون ذور الفكر الديموقراطى (أطباء الريف ومدرسو والمهندسون الزراعيون والمختصون بالإحصاء) بين موظفى المكاتب .

ورغم ما اتسمت به الحركة الليبرالية من ضعف وعدم استمرار ، فقد كانت تمثل ممحاح التطور الرأسمالى للبلاد . ورغم معارضتها للبقايا الصارخة لنظام القنادة فإنها لم تتحرش أبدا بالنظام الملكى أو بملكيات الاراضى الواسعة . ولم يعبر الليبراليون إلا عن رغبتهم المعتدلة فى أن تتسع حقوق مجالس الذمستفو حتى « يتوج ، هيكل الاجهزة المحلية للحكم الذاتى بهيئة وطنية استشارية منتخبة .

وبقيت الحركة الليبرالية حتى نهاية القرن مجرد تجمع غير محدد الشكل لاتجاهات مختلفة . وحاول الليبراليون أن يجدوا أشكالا تنظيمية لحركة المعارضة ، فوضعوا البرامج وسعوا إلى توسيع قاعدتهم الاجتماعية عن طريق كسب تأييد الطبقات العاملة . وكانت الليبرالية الروسية فى مجموعها تنجرف فى بداية القرن العشرين نحو الاتجاهات الدستورية البورجوازية . لكن الليبراليين لم يتمكنوا فى ذلك الحين من أن يصبحوا قوة اجتماعية ذات أهمية ، أو أن ينشئوا لهم حزبا سياسيا بالمعنى الحقيقى للكلمة .

وعندما قامت ثورة ١٩٠٥ أدخل الليبراليون الروس على برنامجهم تغييرات جذرية ، وضاعفوا من نشاطهم فى معارضة الأوتوقراطية . وأعلنت أكثر المنظمات الليبرالية ميلا إلى اليسار وهى « عصابة التحرير » فى مارس ١٩٠٥ برنامجا لا يعد الشعب فقط بالحريات الديموقراطية بل يعد أيضا بعدد من الإصلاحات الاجتماعية ، كان من بينها إنقاص يوم العمل إلى ٨ ساعات ، وتخصيص مساحات إضافية من الأرض للفلاحين الذين لا يملكون كفايتهم ،

وذلك من أراضي الحكومة ومن المزارع الخاصة عن طريق الاستيلاء على بعض المساحات مقابل دفع تعويضات . غير أن التحركات الشعبية الصاخبة ، ولأنسيا الانتفاضة القوية لحركة الطبقة العاملة ، لم تلبث أن ردت حتى أشد الليبراليين حماسة إلى « صوابهم » . وكان الضغط الشعبي قد ألزم القيصر بأن يوقع في ١٧ أكتوبر ١٩٠٥ بيانا يعد فيه بالحرية السياسية وبتشكيل مجلس الدوما التشريعي . وكانت تلك نقطة تحول المعسكر الليبرالي من التأييد الجزئي المشروط والتعاطف الجزئي مع الثورة في ربيع وصيف عام ١٩٠٥ إلى رفضها صراحة وإدانة الأحزاب الثورية . وإذا كان الأمر قد تطلب في دول الغرب بضع عشرات السنين حتى تمر الليبرالية بهذا التغيير فقد حدث في روسيا خلال بضعة أشهر فحسب ، مما كشف عن القوة الهائلة للثورة الشعبية للعمال والفلاحين . واسكنه كشف أيضا عن أن الليبرالية الروسية ولدت ميتة . وأعلن الليبراليون استنكارهم الشديد للانتفاضة المسلحة في موسكو في ١٩٠٥ ، ووصفوها بأنها « جنون » و « حق » ، وبأنها غلاملة بشعة غير قابلة للإصلاح من جانب العمال والحزب المنشقي . وهكذا كشف الليبراليون بوضوح عن تحوّلهم إلى المساعدة الأيدلوجية للأعمال المعادية للثورة وتبريرها وعن رفضهم لمبادئ الديمقراطية وحرية الشعب ، رغم أنهم كانوا يزعمون من قبل أن غرضهم الرئيسي هو الدفاع عن تلك المبادئ .

وتبلورت القوى الليبرالية في النهاية في حزبين سياسيين في أكتوبر ونوفمبر ١ٹ٠٥ ، إذ شكلت الحزب الدستوري الديمقراطي (والذي يطلق عليه اسم السكاديت على سبيل الاختصار) واتحاد ١٧ أكتوبر (ويطلق عليه اسم الأكتوبريين) . وقد ضم أول هذين الحزبين يسار الوسط ، وضم الآخر الجناح اليميني من عناصر الحركة الليبرالية . واجتذب حزب السكاديت بعض المنقذين البورجوازيين الكبار ، وكبار ملاك الأرض ذوي العقليّة الليبرالية ، وبعض الموظفين . وكان له في البداية بعض التأييد من جانب البورجوازية الصغيرة في

الذين ، بل ومن جانب فئات محدودة من العمال والفلاحين . غير أن هذه الفئات لم تلبث أن خرجت من تحت تأثيره . ومن ناحية أخرى فقد بدأ الحزب بمد قمع ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ في دعم الاتصالات بالبورجوازية الاحتكارية الكبيرة أما النفوذ السائد بين الاوكتوبريين فكان للملاك والارغيااء الذين أعادوا تنظيم مزارعهم بحيث أصبحت على أسس رأسمالية ، وكذلك القطاعات العليا للبورجوازية التجارية والصناعية . وكان أثرهم على الفئات الديمقراطية الواسعة من المجتمع ضئيلا للغاية . وكانت علاقة الكاديت « بالقمة » الحاكمة ورجال الأعمال والمعسكر الديمقراطي علاقة معقدة . ففي البداية عندما كانت القيصريّة في خوف من الثورة ، سعت إلى تدجين الكاديت بل وتفاوضت معهم بشأن مشاركة الليبراليين في الحكم (أكتوبر ١٩٠٥ و يونيو ١٩٠٦) . غير أن تقرب الكاديت إلى الشعب ، والأهم من ذلك ما تم كشف بسرعة ، من العجز عن سد الفجوة بين الاوتوقراطية والملاك من ناحية وجماهير الشعب العامل من ناحية أخرى ، لم يلبث أن وضع حدا لذلك . فبعد أن فرغت الحكومة من مواجهة اضطرابات ١٩٠٥ كفت عن التعامل مع « حزب الحرية الشعبية » وهو الاسم الذي بدأ الكاديت في إطلاقه على أنفسهم ، ولم تمتد فتاح معهم إلا لأن الكاديت لم يكونوا يتعرضون للأسس التي يقوم عليها النظام القائم . ربما كان برنامج الكاديت يتضمن كثيرا من عناصر الديماجوجية الإجتماعية ، فقد كان يبدو للبورجوازية التجارية والصناعية حزبا « أحمر » منعزلا عن الواقع . وهم كذا فرغم أن الكاديت نجحوا في أن يكونوا المعبرين الايدولوجيين الرئيسيين عن البورجوازية الليبرالية الروسية وكانوا يمثلون بحق مصالحها الاستراتيجية الأساسية إلا أنهم فشلوا في كسب تأييد السلطات ذات النفوذ . أما بالنسبة للجماهير المريضة من الشعب فقد كان الكاديت دائما حزبا غريبا عنها باعتباره حزب « السادة » . وفشل الكاديت في كسب التأييد سواء بين العمال والفلاحين

أو بين الفئات الرئيسية من المثقفين الكادحين . وبينما كان تنظيم الكاديت في عام ١٩٠٦ في ذروته يضم أعضاء يبلغون عدة آلاف فقد انحدر فيما بعد إلى ما يشبه الاضمحلال الكامل والشلل ، ولا سيما في مدن الأقاليم .

ونظرا لفشل الكاديت في الحصول على تأييد الجماهير أو رجال الأعمال فإنهم لم يصبحوا في أي وقت حزبا قويا للمعارضة ومن الأمور ذات الدلالة أنه مع انخفاض المد الثوري لعام ١٩٠٥ بدأت معارضة الكاديت في الزوال . وأعلنوا في بداية ١٩٠٦ صراحة أن روسيا يجب أن تبقى دولة ملكية دستورية . وفي ١٩٠٧ تخلوا عمليا عن مطالبتهم بحكومة مسؤولة أمام مجلس الدوما ، وضيّقوا نطاق الإصلاح الزراعي الذي يطالبون به . وفي إحدى اللحظات الحرجة رفضوا أن يدافعوا عن الأعضاء العاملين في مجلس الدوما الثاني عن اهتمامهم السلطات القيصريّة دون أي دليل بالأعداد لإنتقال ، وفي سنوات الحكم الرجعي لستوليبيين ، اختار الكاديت موقف « المعارضة المسؤولة » (على خلاف « المعارضة غير المسؤولة » من جانب الأحزاب الثورية) بل وكفوا عن إعداد مشروعات قوانين من جانبهم ، مكتفين بتقديم تعديلات مختلفة لمشروعات القوانين التي تقدمها الحكومة .

وقبيل الحرب العالمية الأولى ، ومع المد الجديد للحركة الثورية في أنحاء البلاد ، عاد الكاديت إلى الإنجاء نحو اليسار ، بل وتجاسروا في عام ١٩١٣ على التصويت ضد الاعتمادات المطلوبة لوزارة الداخلية والتي كانت تهدف أساسا إلى مقاومة أعداء الاتوقراطية . ولكن حتى في ذلك الحين لم يجروء الكاديت على قطع علاقاتهم بالحكومة فقد كانوا يحاولون العثور على « موقف ثالث » لوجوده ، إذا كانوا يسمعون إلى النميز عن المعسكر الرجعي وعن الثوريين في وقت واحد . ووجدوا أنهم يستطيعون في أفضل الأحوال أن يعملوا « في توازن » مع القوى الثورية . وكان ذلك يعني من الناحية العملية استخدام ما يحققه تضال

العمال والفلاحين من نتائج من أجل بلوغ أهدافهم السياسية وسعيهم للمشاركة في السلطة مع النظام القيصرى الممترى. ولم يكن ذلك بأى حال من وسائل دعم نضال الشعب من أجل الحرية .

وكان الزعيم المرموق للكاديت هو ب . ن . ميليوكوف ، إذ شغل منصب رئيس اللجنة المركزية للحزب سنوات طويلة . كما كان رئيسا لتحرير جريدته الرئيسية « ريخ » (الكلمة) . وذلك بالإضافة إلى أنه كان يلعب دورا أساسيا فى المجموعة البرلمانية للكاديت ، حيث تحدث فى مناسبات كثيرة حول المسائل السياسية الرئيسية . وكان ميليوكوف من قبل إستاذًا مساعدًا فى جامعة موسكو يقوم بتدريس تاريخ روسيا ، كما ألف عددا من الكتب الدراسيه الهامه من بينها « مقالات حول تاريخ الحضارة الروسيه » الذى طبع عدة طبعات . وقد تفرغ فى عام ١٩٠٥ للنشاط السياسى .

ورغم أن ميليوكوف كان ديماجوجيا متمرسا ذا طبيعة بيزنطيه لا يستغرب منها النفاق والمناورة ، فقد كانت له بغير شك بعض المبادئ التى يتمسك بها . فقد كان يؤمن مثلا بـميزات التطور الإصلاحي للتحول الاجتماعى ويؤثره على الطريق الثورى . وكان يرى أن الحكم الملىكى هو المحور الذى يدور حوله النظام السياسى الروسى بأمره وكان يدعو دائما لقوميه الدولة الكبرى . كما كان يعتقد أنه يستحيل قمع الأفكار بالحراب ، أو وضع حد للثوره بالأساليب البوليسيه القديمه وحدها . وكان يحاول أن يواجه الأيدولوجيه الثوريه ، ولا سيما الماركسيه ، بمجموعه متشابهة من آرائه الخاصه . وكان يرى أن ماتحتاجه روسيا هو حكم القانون والنظام الرأسمالى ، والحق المؤكد فى المملكه الخاصه والحضارة الاوربيه ، وليس الثورة أو الإشتراكيه . غير أن التاريخ قد بين أن هذا البديل للماركسيه كان مقضيا عليه بالفشل منذ البدايه فى روسيا الثوريه .

ولسنوات طويلة كان المنافس السياسي الرئيسى لميلوكوف فى الاتحاد الماركسيه
للكاديت هو ف . ا . ماكلاكوف ، وهو محام كبير ، وعضو فى الثلاثة من
مجالس الدوما . وكان لفارقة شقيقا لاحد كبار مؤلفى القيصر وهو فودسج
لليبرالى الممتدل . ويرى عنه أنه عندما كان طالبا حضر إحدى المحلات
الموسيقية ووقف وراء أحد الأعمدة لينشد المارسيه ، ثم عاد إلى الجاوس بعين
حتى لا يتمكن رؤساؤه من رؤيته . فى تلك السنوات كان الشهيد الوطنى لفرنسا
الجمهورية بمنوعا رسميا فى روسيا .

وكان من بين قادة الكاديت أيضا الإخوان ديجوركوف ، وهما من أسرة
من الأمراء القدامى ، أسرة الأمير د . ا . شاخوفسكى وهو من الشخصيات
البارزة فى مجالس الدمشقو (الهيئات المحلية للحكم الذاتى) و . ا . ا .
بيتروفسكيتش والمحامى م . م . فيناير . وكان من الشخصيات البارزة بين
الكاديت بيوتر ستروف الذى بدأ حياته السياسية من الماركسيين النابويين ،
بل إنه هو الذى كتب البيان التأسيسى لحزب العمال الاشتراكيين الديموقراطيين
الروسى . غير أنه بدل موقفه بعد ذلك . تبديلا كاملا تقريبا وأصبح قائدا
للجناح اليمينى فى حزب الكاديت .

أما الاكثوريون فقد كان شعارهم الاحتفاظ بالإمبراطورية الروسية
ووحدة وامتكاملة ، وإقامة نظام ملكى قوى وكانوا بوصفهم إصلاحيين
بورجوازيين يدعون إلى منح الفلاحين جميع الحقوق المدنية . وأيدوا الإصلاح
الزراعى الذى وضعه ستولييين ، واعترفوا بحق النقابات فى الحرية والاضرابات
الاقتصادية ، وإن كان اعترافهم مشوبا ببعض التحفظات . وأثناء الفترة الرجعية
كان الاكثوريون يتحركون فى مجلس الدوما كالبندول ، فيتحجرون حينئذ
بالسود المائة ، وحينئذ آخر نحو الكاديت . وقد مكثوا بالحكومة القيصرية

من إصدار قوانين ذات طابع رجمي ساخر أو تستر وراء نسكة ليبرالية بما يتفق مع روح العصر .

ونظرا لزيادة التوتر السياسي بوجه عام في السنوات السابقة على نشوب الحرب في روسيا ، لم يلبث معسكر الاوكتوبريين أن تبدد إذ هجرته العناصر اليسارية واليمينية ، وشكلت البقية مجموعة للاوكتوبريين داخل مجالس الزمستفو . وانحذت هذه المجموعة مواقف أكثر يسارية عما كانت من قبل ، وإن كانت قد استمرت في تأييد الحكومة في جميع المسائل الجوهرية .

وكانت أبرز شخصية بين الاوكتوبريين هي شخصية ١٠١ . جوشكوف ، وهو ينحدر من أسرة من ملاك مصانع النسيج والماليين في موسكو . وكان وطنيا متعصبا ، يتميز بقوة الزيمة والإنجاء إلى المغامرة وكان عنيد الرأي ، يطبع غرائزه طاعة عمياء . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه أستاذ المؤامرات وعبقري المخادعة . وقد بدأ عمله العسكري كتطوع في آسيا الوسطى ، وعندما قامت حرب البوير توجه إلى أفريقيا ، ومنها انتقل إلى الشرق الأقصى . وقد طرد من الجيش بفضيحة عندما كان بدرجة رائد . ومع ذلك كان جوشكوف يعتبر نفسه خبيرا في المسائل العسكرية ، وكانت له شعبية كبيرة بين الضباط . وقد رأس في مجلس الدوما لجنة الدفاع ، وتمكن من الإطلاع على كثير من الأسرار العسكرية . وفي عامي ١٩١٠ و ١٩١١ أصبح رئيسا لمجلس الدوما الثالث وبين عامي ١٩١٥ و ١٩١٧ رأس اللجنة المركزية للصناعات الحربية . وقد انضم إلى الحكومة المؤقتة الأولى في مارس ١٩١٧ كوزير للحرب والبحرية .

وقد كشف لينين براءة عن الجوهر الحقيقي للاوكتوبريين عندما قال : إن الاوكتوبري النموذجي ليس مثقفا بورجوازيا بل هو بورجوازي كبير فهو . ليس ليدولوجي المجتمع البورجوازي بل هو سيده الحقيقي .

ولما كانت له مصلحة مباشرة في الاستغلال الرأسمالي فإنه يحتقر جميع النظريات ويتمال على الانتاجنسيا المثقفين - أهل الفكر) ، وعلى خلاف الكاديت يرفض أى إدعاء بالديموقراطية . فهو رجل أعمال بوجوازي ، (١) .

وفي عام ١٩١٢ أخذ الصناعيون في الإقليم الأوسط من روسيا ، ولأسيما موسكو ، على عاتقهم مهمة إنشاء حزب بوجوازي آخر ، أطلقوا عليه اسم الحزب التقدمي ، وأصبح يسمى حزب التقدميين على سبيل الاختصار . وكان المقصود هو تشكيل حزب من كبار رجال الأعمال غير متأثر بأى نفوذ خارجي . وكان التقدميون يعبرون عن مصالح كبار الرأسماليين بشكل أكثر صراحة ومباشرة عن الاكثوريين . وكانوا ينفرون من النفوذ القوى للملاك الاراضى فى اتحاد ١٧ أكتوبر لأن ذلك النفوذ كان يعوق سعيهم للعمل بشكل متصل لتنفيذ الاحكام الاساسية فى بيان ١٧ أكتوبر . وكان التقدميون يريدون حكومة قوية لكسب أسواق جديدة للصناعة الروسية ، وذلك أولا وقبل كل شىء فى الشرقيين الأدنى والأوسط وكانوا يدعون إلى النضال بقوة ضد سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية على الاقتصاد الروسى ، وإلى قيام حكومه مسؤولة أمام الدوما ، وتوسيع سلطه مجالس الدوما على المجالس المحلية لتحكم الذاتى . وكانوا يعتقدون أن الاداة الرئيسيه للضغط على الحكومه هى تشكيلة كتلة من الاحزاب البوجوازيه والملاك فى الدوما فهذه الكتلة إذ تهدد بؤاد مشروعات الميزانيه التى تقدمها الحكومه يمكن أن تلزمها بالموافقه على ما تريده من إصلاحات . وكان التقدميون على استعداد لأن يستخدموا فى مقاربتهم السياسيه الاحزاب اليساريه ذاتها فى ذلك البلاشفه ، باعتبارهم من وسائل الضغط على الاوتوقراطية . وكانت أبرز شخصيه بين صفوف

الحزب التقدمي ١٠١ . كونوفالوف رئيس إحدى شركات النسيج الكبرى في موسكو والتي يبلغ رأسمالها ٧ ملايين روبل . وكان نموذجاً للرأسمالي المتعلم المجتهد من أبناء الجيل الجديد ، ومن الأمور ذات الدلالة أنه أصبح بعد ثورة فبراير وزيراً للتجارة والصناعة ونائباً لرئيس الوزراء في الحكومة المؤقتة .

ومن الشخصيات البارزة الأخرى في الحزب ب . ب . ريبوشينسكي ، وهو واحد من ثمانية أخوة من إحدى الأسر المعروفة في روسيا باهتمامها بالصناعة والبنوك ، وهي منحدرة من أغنياء الفلاحين . وكانت الأسرة تملك بمجموعه مصانع في مجال الصناعات الخفيفة والثقيلة على السواء ، وقد شرعت في إنشاء مصنع للمحركات كان من أوائل هذه المصانع في روسيا ، وكان لها دور ملموس في كثير من منظمات البورجوازية النشيطة وتصدر جريدة معروفة باسم « أوترو روسي » (صباح روسيا) وأصبح ب . ب . ريبوشينسكي الزعيم المعترف به للبورجوازية الروسية المعادية للثورة قبيل ثورة أكتوبر .

ويمكننا تبين الحقائق أنه ليس ثمة ما يدعو للانتقاص من قوة وتنظيم البورجوازية الروسية . فقد مثلتها منظمات عديدة وأحزاب سياسية وساسة مهرة وعلى قدر كبير من الكفاءة . ولكن نظراً للوضع الواقعي للبورجوازية في الهيكل الاجتماعي للبلاد ، واعتمادها المستمر على القيصرية ، كانت عاجزة وغير راغبة في أن تصبح ثورية ، أو أن تشكل قوة مستمرة للمعارضة إذ كانت تمزقها الخلافات الداخلية ، وتمارس أساليب الاستغلال البدائي والفجوة . كما كانت تنقصها الخبرة اللازمة في الإفساد السياسي للطبقة العاملة والقدرة على المناورة الاجتماعية . وأدى ذلك كله إلى ضعف البورجوازية الروسية وعدم قدرتها على أن تخلف القيصرية في إدارة دفة الدولة . ولذا فعند الإطاحة بالإوتوقراطية اتخذت روسيا سبيلاً مختلفاً تماماً وأسست مستقبلها للحزب الذي قاد معسكر الديمقراطية البروليتاريه والفلاحين ، حزب البلاشفة ولم تسلمه لسانه البورجوازيين .

كانت البروليتاريا أكثر طبقات المجتمع الروسى تقدما ، ولذا كان من الطبيعي أن تكون أول طبقة تنشئ طليعتها السياسية - الحزب الاشتراكي الديموقراطى للعمال الروس - منذ عام ١٨٩٨ . ولم تكن النظرية الماركسية معروفة فى أواخر القرن التاسع عشر إلا بين حلقة ضيقة جدا من المثقفين الديموقراطيين والعمال المتقدمين . وفى البداية كانت الحركة التلقائية للطبقة العاملة للاحتجاج على الظلم الرأسمالى موجودة بصورة يمكن أن يقال إنها متوازية مع وجود الماركسية غير أن الاشتراكية العملية بدأت تندج فى حركة الطبقة العاملة فى روسيا منذ عام ١٨٩٠ . وكان ذلك تطورا سريعا ومشجعا جدا ، يرجع فى جانب كبير منه إلى عصبية النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة ، التى أنشأها الماركسى الروسى الشاب ف . م . أوايانوف (لينين) فى سان بطرسبرج فى عام ١٨٩٥ . وقد نشأت تنظيمات مماثلة فى المدن الروسىة الأخرى ومهدت الطريق لقيام حزب اشتراكي ديموقراطى يستند إلى نظريه الماركسيه الثوريه .

غير أن حزب الطبقة العاملة بقى بغير برنامج خاص به حتى صيف عام ١٩٠٣ ، كما لم تتوافر له الوحدة الأيدلوجيه اللازمه . وكانت التنظيمات الاشتراكيه الديموقراطيه صغيره ومنعزله . ولم يكن لديها الكفايه من الافراد أو الاموال للقيام بالعمل الحزبى ، كما كان من اللازم التغلب على عـدم إيمان بعض الاشتراكيين الديموقراطيين بالإمكانات الثوريه للطبقة العاملة ومحاولتهم قصر حركتها على الأغراض الاقتصاديه الخالصه الراميه إلى تحسين حالة البروليتاريا . وكانت الجريدة الماركسيه « إسكرا » (الشرارة) التى صدرت فى الخارج هى التى ساعدت فى التغلب على الفوضى التنظيمية والتردد الأيدلوجى بين صفوف الاشتراكيه الديموقراطيه الروسيه الوليدة .

وكان لينين هو مؤسس هذه الجريدة ، إذ سافر إلى الخارج في عام ١٩٠٠ به - أن قضى أربع سنوات في السجن والنفي الداخلي على أثر القضية الخامسة بمصيبة سان بطرسبرج للنضال من أجل تحرير الطبقة العاملة . وقد قام لينين أثناء وجوده في الخارج بعمل هائل يضم صفوف جميع القوى الثورية الحققة في حركة الطبقة العاملة الروسية . وقد ساهم مع لينين في مجلس تحرير جريدة « إيسكرا » بعض الماركسيين البارزين وفي مقدمتهم ج . ف . بليخانوف . ودعت الجريدة إلى عقد المؤتمر الثاني للحزب ، وقامت بتنظيمه في صيف عام ١٩٠٣ . وكان هذا المؤتمر بداية مرحلة جديدة في تطور حركة الطبقة العاملة وحركة الاشتراكية الديمقراطية في روسيا .

وفي المؤتمر حدث انقسام بين مؤيدي إيسكرا أي الماركسيين الثوريين المخلصين الذين تبعوا لينين ومختلف العناصر المترددة الإنتهازية التي ابتعدت عن الماركسية في كثير من المسائل النظرية والعملية . وحصل أنصار لينين على أغلبية الأصوات في الانتخاب للأجهزة المركزية للحزب ، وأصبح يطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم البلاشفة (من الكلمة الروسية « بولشيفستفو » أي الأغلبية) وهم لم يدعوا أبدا إلى تقسيم المنظمات الحزبية ، بل سعى على العكس إلى العمل الجماعي الرقيق بين الاشتراكيين الديمقراطيين بشرط إطاعه جميع أعضاء الحزب لإرادة الأغلبية . غير أن معارضتهم الذين أصبحوا يعرفون باسم المناشفة (من الكلمة الروسية « مينشيفستفو » أي الأقلية) شنوا حملة شعواء من أجل تفكيك روابط الأجهزة الحزبية القائمة ، ولجأوا إلى أساليب لا يمكن أن تتفق مع الأصول الحزبية . وترتب على ذلك انقسام الاشتراكية الديمقراطية الروسية إلى حزبين متوازيين ، البلاشفة والمناشفة وقد بذلت محاولات لم تنجح للعودة إلى الوحدة في الفترة بين ١٩٠٦ و ١٩١١ ، وانفصل أحدهما عن الآخر انفصالا كاملا في عام ١٩١٢ .

وكان قيام الحزب البلشفي (الذي أصبح الآن الحزب الشيوعي للإنجلترا
السوفيتي) في عام ١٩٠٣ حدثا هاما لاني تاريخ حركة الطبقة العاملة الروسية وحدها
بل وفي تاريخ حركة الطبقة العاملة العالمية أيضا . فعلى خلاف أحزاب الدولية
الثانية التي كانت غير واضحة الشكل من الناحية التنظيمية وتعاني من الخلاقات
الأيديولوجية ، والتي اتجهت لشكل متزايد إلى قصر عملها على الطريق السلي البرماني
للنضال من أجل الإشتراكية ، أصبح البلاشفة اللبينيون تنظيمًا متينًا ذا مركزية
دقيقة يضم مناضلين تجمع بينهم آراء موحدة ومستعدين لخوض المشاق بل والموت
من أجل الثورة والمثل العليا للشيوعية .

وكانت المنظمات البلشفية داخل روسيا تعمل في الخفاء وبسريه كامله بحكم
الضرورة . وكانت تختار أعضائها بعناية وتلتزم بالإنضباط الحزبي بدقه وأوضح
البرنامج الأول للحزب البلشفي الذي أقره المؤتمر الثاني للحزب الإشتراكي
الديموقراطي للعمال الروس أن هدف الطبقة العاملة هو الثورة الإشتراكية
و ديكتاتوريه البروليتاريا ، وإقامه مجتمع اشتراكي . وفي الوقت ذاته كانت المهمه
الأوليه للحزب هي النضال للإطاحه بالنظام الاوتوقراطي وتطبيق الديموقراطيه
الكامله في أنحاء البلاد . وكان ذلك يشمل إقامه جمهوريه ديموقراطيه ، وتطبيق
الحريات المدنيه ، وحق الاقتراع العام ، والمساواة الكامله بين جميع القوميات ،
والاعتراف بحقها في أن تقرر مستقبلها بحريه بما في ذلك الانفصال عن روسيا .
كما تضمن البرنامج المطالبه بيوم العمل المؤلف من ٨ ساعات ، وحرية الإضراب ،
وتشكيل النقابات ، والتأمين الاجتماعي وتحسين ظروف الحياة والعمل للعمال .

ووجه البلاشفه أيضا اهتماما كبيرا للقضاء على جميع بقايا نظام الرق في
الزراعه . وكانوا يرون دائما أن الفلاحين هم أقرب الأصدقاء والحلفاء للطبقة
العاملة في النضال ضد الاوتوقراطيه وكان ذلك هو السبب في أنهم طالبوا أولا

بإعادة الأراضي التي انتزعت من الفلاحين بالقوة بعد الإصلاح الذي طبق في عام ١٨٦١ . وفي عام ١٩٠٥ أضيف بند آخر إلى البرنامج يدعو إلى تسليم الفلاحين الكادحين جميع الأراضي المملوكة للنبلاء والكنيسة والحكومة والأسرة المالكة دون مقابل . وفي عام ١٩٠٦ قدم لينين برنامجا لتأميم جميع الأراضي باعتبار ذلك أفضل السبل للقضاء على جميع بقايا القرون الوسطى وإيجاد الظروف اللازمة للتطور المستمر للزراعة التي يقوم بها الفلاحون بمنأى عن الملكيات الكبيرة للنبلاء .

ويظهر من ذلك أن برنامج البلاشفة للمستقبل القريب لم يكن يرمى إلى القضاء على الرأسمالية ، بل كان يرمى إلى إزالة جميع العقبات من طريق تطورها . وقد اهتمدى الماركسيون الروس في هذا الصدد إلى حد ما بالملك الذي سار فيه التلمور الصناعي والزراعي في الولايات المتحدة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ولم يفقد البلاشفة في الوقت ذاته تطلعاتهم إلى المستقبل الاشتراكي لحركة الطبقة العاملة . ولم يكونوا على استعداد أبدا لتأجيل الثورة البروليتارية في روسيا إلى مآلئها لئلا يجرى أن البلاد كانت لا تزال متخلفة في تطورها الاقتصادي عن الدول الرأسمالية الغربية الرئيسية . وعلى العكس من ذلك كان البلاشفة على يقين من أن الدور القيادي للطبقة العاملة في النضال لتحرير روسيا من الاستعباد للاتوقراطية ، سيؤدي بعد الانتصار على القيصرية إلى تمهيد الطريق لاستمرار تطور الثورة وانتقالها إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الكفاح من أجل الاشتراكية . وكان البلاشفة يعتقدون أن الثورة البرجوازية الديمقراطية في روسيا يمكن أن تتحول بالتدريج إلى ثورة اشتراكية ما دامت تتوفر في البلاد الشروط المادية الموضوعية لبدء التعمير الاشتراكي وكان من الشروط الجوهرية الأخرى لتحقيق ذلك ، قيام تحالف وثيق بين الطبقة العاملة

وفقراء الفلاحين والفئات شبه البروليتارية من سكان المدن . وتأيد البروليتاريا الدولية . والواقع أن لينين وصل في عام ١٩١٥ إلى استنتاج على أكبر قدر من الأهمية عندما قال إن الثورة البروليتارية يمكن أن تنتصر أولاً في بلد واحد تكون التناقضات الإمبريالية فيه قد وصلت إلى درجة عالية من الحدة بحيث تكون الطبقة العاملة وحزبها الماركسي قد اكتسبا قوة أكبر من مثيلها في أى مكان آخر ، تمكنهما من خوض نضالاً عنيداً ضد البورجوازية . وقد أصبحت روسيا في عام ١٩١٧ ذلك البلد .

وكان البلاشفة يهتدون بالنظرية الماركسية التي طورها لينين وأثراها وطوعها للظروف القائمة في مطلع القرن العشرين . وقد قادوا نضال البروليتاريا الروسية أولاً خلال ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، ثم في ثورة فبراير ١٩١٧ التي وضعت حداً للأوتوقراطية القيصرية ، وأخيراً في ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى .

وكان من نواحي القوة المميزة للبلاشفة ومن مصادرها تفوقها على الأحزاب الاشتراكية الأخرى في تلك الأيام الوحدة بين النظرية والتطبيق . فلم يكن لدى البلاشفة أبداً تلك الفجوة الفاتلة بين القول والعمل والتي كانت من السمات المميزة للدوليه الثانيه . فقد قادوا إضرابات الطبقة العاملة ودفعوها للقيام بانتفاضه مسلحه ضد النظام الاستبدادي . وقاموا بقدر كبير من التوعيه السياسيه في المدينه والريف ، وبذلوا نشاطاً مدوساً في النقابات التي تشكلت أثناء الثورة الروسيه الأولى ، كما استخدموا مجلس الدوما ببراعه للأغراض الثوريه ، وكانوا ، دائماً في طليعه الصراع الطبقي وفي وسط جماهير الشعب . وكانوا الحزب الثوري الوحيد في روسيا الذي قدم للجماهير برنامجاً بناءً لتجديد شباب البلد وحل جميع مشاكل الحياه الحاده والمؤلمه .

وكان في وسع المرء أن يلتقي بالبلاشفه في أحياء العمال في أطراف المدن

وفي الفري النائية ، وفي قاعات الكليات والجامعات ، وفي ثكنات الجيش
القيصري . وكان الحزب مرتبطا بالشعب ارتباطا لا ينفصم . وهدفه الاسمي ومهمته
الرئيسية هي النضال من أجل المستقبل المشرق للطبقات ، الدنيا ، العريضة .
واستمد البلاشفة قوتهم من ارتباطهم بالشعب وبالطبقة العاملة في المقام الاول
ومن هذه الطبقة جاء أشجع وأقوى وأوعى المناضلين من أجل قضية الثورة . وفي
عام ١٩٠٥ كان العمال الصناعيون يمثلون نحو ٦٠ ٪ من أعضاء التنظيمات البلشفية .
كما انضم إليها خيرة ممثلي الانتاجنسيا الديمقراطية والفلاحين الكادحين ،
وأناس من الطبقة الوسطى في المدن . ورغم أن الحزب البلشفي لم يكن كبيرا
بشكل خاص قبل ثورة اكتوبر ، فإن الوحدة الوثيقة بين صفوفه وروح
الإيثار الكامل لدى جميع أعضائه جعلت من حزب الشيوعيين الذي أنشأه لينين
أخطر الأعداء السياسيين للقيصريه والبورجوازيه .

وكان الحزب البلشفي وُلِدَ فِكرَ لينين بالمعنى الكامل للكلمة . فقد كان
لينين من عباقرة الفكر الثوري ، ومنظما قديرا وخطيبا وصحفيا بارزا . وقد ولد
من أسرة نبيلة ولكنه كرس حياته من سن ١٧ عاما للحركة الثورية والنضال من
أجل تحرير الطبقة العاملة من الاستغلال والاضطهاد وكرس حياته بأسرها للنضال
من أجل إنتصار المثل الشيوعي وسعادة الجماهير العادية . ويمكن أن يوضع
لينين على قدم المساواة مع أكبر الثوريين في التاريخ . بل إنه يفوقهم بمالا يقاس
لأنه بلغ قمم الماركسية وهي أكثر النظريات الإجتماعية تقدما في هذا العصر ،
وأسس الحزب الماركسي الثوري للطبقة العاملة والذي أصبح أداة وعالة لإحداث
التغيير الاجتماعي الجذري .

وكان لينين هو الوحيد الذي أدرك بالسكامل التغيير الجوهرى الذى طرأ
على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للعالم قرب انتهاء القرن ، وقدر

تتأخر هذا التغيير والآفاق الجديدة التي فتحتها أمام الطبقة العاملة . وعندما انضم لينين إلى الحركة الثورية ، كسبت الماركسية الثورية التي كان انتهازيو الدولة الثانية يشوهونها ، منبعا عظيما للأفكار . وأصبح لدى الحزب البروليتارى منظم وقائد مرموق وذو قوة دينوية لم يعرفها التاريخ من قبل .

ومن ناحية الشكل الخارجى فليس فى لينين أدنى شبه من القائد من طراز سوبرمان ، فهو متوسط القامة ، أميل إلى الإمتلاء له جبهة عريضة من طراز جبهة سقراط ، وعينان مغمضتان قليلا ولحية صغيرة رمادية اللون . وكانت أبرز صفاته البساطة الخالية من أى تكلف أو إدعاء ، وكان لذلك أثره الهائل على الجماهير الكادحة . وكان العمال يقولون عنه بحب واحترام : « لأنه رجلنا » . وكانت هاتان الكلمتان تنطويان على أعظم الثناء والتقدير ، وهما ضروريان للقائد السامى الذى يكرس حياته بأسرها لخدمة الجماهير العاملة . ولينين مدين بمكانته كزعيم للمكانة الذهنية وحدها ، والتي كانت تجمع بين الثقافة الموسوعية الشاملة ، والمنطق الواضح الصافى والبصيرة النادرة . ومازال التراث الفكرى للينين يدهشنا حتى اليوم بأفكاره الملممة ، ونفاذ نظراته الجدلية ، وحاسته وتفاقله . وتكمن قوة لينين فى قدرته على الرقبة لدى أبعد من الآخرين ، والفهم بصورة أعمق وأسرع ، والتعبير عن أفكاره بشكل أوضح وأدق وكان لينين يعرف كيف يحدث الناس عن أمور شديدة التعقيد دون حاجة إلى إشارات مسرحية أو حركات مصطنعة بل بعبارات بسيطة واضحة . وكان الجمهور الذى تأسره وتسحره تلك الحكمة العميقة البسيطة يستمع إلى زعيم الثورة بأنفاس لاهية ، غير مكثف بأن يستمد من كلماته برنامجا للعمل ، بل ويستمد منها أيضا ثقة عميقة بأن هذا هو البرنامج الوحيد الكفيل بتحقيق النصر .

وتكمن قوة البلاشفة فى أنه كان لدى الحزب قادة مرموقون آخرون يعملون

إلى جانب لينين ونمت قيادته المباشرة ، وقد اجتازوا امتحان الثورات الروسية
الثلاث . وبعد انتصار ثورة أكتوبر نجحوا في تولي القيادة في جميع مجالات
الحياة في أول دولة اشتراكية في العالم . وبين هؤلاء الزعماء عمال وملاحون من
جميع الجنسيات الرئيسية المقيمة في روسيا : الروس والأوكرانيون واليهود
والأرمن والخورجيون واللاتفيون وغيرهم .

ولم يبق كل من سار مع لينين على طريق ثورة أكتوبر مخلصا لاوكتاره
ونواياه . فبعض زملائه السابقين سخطوا على الطريق في المنحنى الحادة للتاريخ ،
بل وتحول بعضهم إلى أعداء سياسيين . لكن ذلك يضاعف من المأثرة البطولية
التي حقنها لينين ومن ساروا معه حتى وصلوا إلى الهدف العظيم .

وقد عبر الحزب البلشفي عن مصالح الطبقة العاملة وسائر الجماهير المكادحة
بشكل أكمل وأدق من أي جهة أخرى . وأصبح البلاشفة بحق قادة الطبقة العاملة .
ويعتبر نشاطهم المخلص متعدد الجوانب لمصلحة الشعب أفضل تجسيد لتدوير
القيادي للطبقة العاملة في الصراع من أجل تحرير روسيا من القهر الاستبدادي
الآوتوقراطي والاستغلال الرأسمالي . وكان عملهم ضروريا لتمكين الطبقة العاملة
من النهوض برسالتها التاريخية بوصفها قائدة للنضال الثوري .

وكان المعارضون الفكريون الأساسيون للبلشفية في حركة الطبقة العاملة هم
المناشفة . فقد كانوا مجموعة انتهازية تضم مثققي البورجوازية الصغيرة ذوي
الافكار الراديكالية وبعض عمال الصناعة . وكان هؤلاء كقاعدة عامة ، من
النسبة ذات المهارة العالية والتي تحصل على أجر مرتفع من بين الجماهير المكادحة .
وكان المناشفة ألعار في كل من سان بطرسبرج وموسكو وأوديسا وروستوف
على الدون ومناطق روسيا الغربية ومناجم الفحم في الدونيتز وفي الترانسدوقاز
وعدة مناطق أخرى . ولكن من الامور ذات الدلالة أنه لم يكن هناك في عام

١٩١٤ غير نحو الخس من المال الواعين سياسيا يؤيدون المناشفة ، بينما كان البلاشفة يتمتعون بتأييد الغالبية المظلمى من الطبقة العاملة .

ورغم أن كلا من البلاشفة والمناشفة كان يهتدى رسميا بنفس البرنامج الماركسى ، فقد كانا قائمين كحزبين مستقلين منذ البداية ، لكل منهما مآكزه التنظيمية ومطبوعاته وعقائده الاستراتيجية والتكتيكية . كما كان البلاشفة والمناشفة مشتبهين في نضال إيدولوجى حاد حول جميع المسائل الجوهرية في السياسات الوطنية .

وإذا تناضينا مؤقتا عن التذبذب المستمر الذى ميز المنشفية كثير سيامى ، فإن عتيدتها يمكن أن تلخص فى أنهم ينكرون إمكان قيام الثورة الاشتراكية فى المستقبل القريب فى بلاد كروسيا التى يعتبرونها متخلفة من جميع النواحي . وبناء على ذلك فقد علموا آمالهم على التطور الحر للبلاد على أسس رأسمالية بوصفها جمهورية برلمانية بورجوازية . وكانوا يعتقدون أن هذه العملية عملية طويلة ، وأنه ستنشأ خلالها وعلى امتداد بضعة عقود الشروط الموضوعية والذاتية اللازمة للانتقال إلى الاشتراكية .

وربط المناشفة بين القضاء على بقايا الاقطاع وإعادة تنظيم البلاد على أسس ديموقراطية ، وبين قيام ثورة بورجوازية من النمط الكلاسيكى ، لأوربا الغربية فى الفترة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر . وبينما كانوا يتشدقون بالآيمان بقيادة الطبقة العاملة للحركة الثورية ، كانوا يرون أن ذلك الدور لا يعدو أن يكون دورا مؤقتا ، والاهم من ذلك أنه دور مفروض على هذه الطبقة بحكم الظروف ، فهو فى رأيهم نابع من ضعف البورجوازية لامن قوة البروليتاريا . ولذا كانوا يتطلعون إلى ظهور حزب بورجوازى قوى فى روسيا (وكان الكاديت أقرب الأحزاب إلى النموذج الذى يتطلعون إليه) يكون من حقه أن

يقود حركة التحرر من الاوتوقراطية . أما الفلاحون ، فن الواضح أن المناشفة قللوا من دورهم في الثورة ، وأبرزوا الجهل السياسى للفلاحين وسيطرة عقلية صغار الملاك عليهم .

ووجه المناشفة لإهتماما كبيرا الأشكال التناوبية لحركة الطبقة العاملة ، ولا سيما الاضرابات الاقتصادية . وعارضوا الاستعداد للانتفاضة المسلحة وبنوا آمالهم . على التنظيمات المالية كالتنقابات والجمعيات التعاونية ، وأشادوا بدور مجلس الدوما باعتباره مركز للحياة السياسية الوطنية .

وتميزت المنشفية بالميل إلى الحلول الوسط في السياسة ، وتقديس الحركات الجماهيرية التلقائية ، والانتفاض من دور الحزب البروليتارى وهم يرون هذا الحزب (وكان ذلك بدايه خلافاتهم مع البلاشفة في المؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى فى ١٩٠٣) على أنه تجمع غير محدد الشكل لخلايا ومجموعات متعددة لا يربط بينها انضباط قوى أو وحدة إيدولوجيه . وكان من رأيهم أنه يجوز أن تضم تلك المجموعات إلى جانب الثوريين المؤمنين العناصر الميالة إليهم والماطفه على الثورة . وبذلك سعى المناشفه إلى تحويل الطبقة العاملة إلى نابع للحركة البورجوازية الليبراليه ، وحدوا من نطاق النضال البروليتارى وأضعفوا حماسه . وبذلك عملوا فى الواقع على تباطؤ العمليه الثوريه سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه .

وأصبحت سمات المناشفه هذه أكثر وضوحا بعد هزيمه الثورة فى ١٩٠٥ — ١٩٠٧ ، عندما تنحى المناشفه اليمينيون عن النضال الثورى وعن الحزب الثورى السرى للطبقة العاملة ذاته ، وبذلك اكتسبوا اسم « أنصار التصفيه » . وقد أنكر هؤلاء المرتدون ديكتاتوريه البروليتاريا والتحالف مع الفلاحين ، ودعوا إلى الأفكار القومييه الخالصه . واتخذ بعضهم موقفا توفيقيا تجاه سياسات « أنصار

التصفيه ، ولم يكن منهم غير فريق ضئيل سمي بالمناشفه ذوى الانجاء الحزبى ، وقفوا مع البلاشفه فى سعيهم للاحتفاظ بمنظمات الحزب السريه وبقوا على ولائهم للآراء الاشتراكيه الديمقراطيه .

ولعب بين المناشفه دورا خاصا الثروتسكيون الذين كانوا يجمعون بين مائى بالانجاءات الثوريه المتطرفه وبين عدد من المبادئ الاستراتيجيه المميزه للمنشفه . فقد أنكروا مثلا دور الفلاحين كحليف للطبقه العامله ، وكانوا شديدى النشاقم بالنسبه للشروط الداخليه للثوره البروليتاريه وعلقوا آمالهم جميعا على المساعدة من جانب الطبقة العامله الدوليه وما إلى ذلك . غير أن آراء تروتسكى^(١) لم يكن لها فى أى وقت انتشار واسع فى حركه الطبقة العامله الروسيه .

وأبرز الشخصيات وأشدها تناقضا فى معسكر المناشفه هو ج . ف . بليخانوف الذى كثيرا ما يوصف فى دول الغرب بأنه « أبو الماركسيه الروسيه » . وهو من النبلاء ، وكان يملك مزرعه صغيره فى محافظه دامبوف ، وبدأ عمله الثورى فيما بعد عام ١٨٧٠ بوصفه من أنصار حزب « الشعب » وصاحب أفكار فوضويه . غير أنه افتتح فيما بعد عام ١٨٨٠ بأن نظريه « الشعبيه »^(٢) وأعمالها

(١) ليون تروتسكى (برونشتاين) (١٨٧٩ - ١٩٤٠) لانضم إلى الحركه الاشتراكيه الديمقراطيه فى عام ١٨٩٧ . وكان من المناشفه ثم اتخذ موقفا وسطيا . وقد قبل فى صفوف الحزب البلشفي فى صيف ١٩١٧ وأصبح عضوا فى المكتب السيامى للجنه المركزيه للحزب فى الفترة بين ١٩١٧ و ١٩٢٦ . وقد عارض خط الحزب فى أكثر من مناسبه وكان ذلك مدعاة لأن يوجه إليه لينين لانتقادات شديده . وفى عام ١٩٢٧ فصل من الحزب وأرسل إلى المنفى .

(٢) كانت الشعبيه ، ليدولوجيه المثقفين من غير ملاك الاراضى ، وقد انتشرت فى المرحله البورجوازيه الديمقراطيه للنضال التحريرى فى روسيا (١٨٦١ - ١٨٩٥) وكان الشعبيون (الناردنيون) يرون أن الفلاحين هم القوة الثوريه الرئيسيه ، وينكرون الدور الحاسم للبروليتاريا فى النضال الثورى ، كما يعتقدون أن التاريخ يصنعه « الأبطال » بينما تنبهم « الجماهير » تبعيه عمياء .

التطبيقية لمستقبل لما ، فتغلب عليها واعتنق الأفكار الماركسية . وأصبح بليخانوف من الأفراد النشيطين في ترويض الماركسية ، ومن المفكرين الثوريين الماركسيين البارزين . وكان ذا شخصية محددة وإرادة قوية تجمع بين الإطلاع الواسع وموهبة المجدالة والإقناع والمهارة الصحفية . والاختلاص الصادق والعميق للطبقة العاملة ، وكان بليخانوف موهوبا على الاختصاص كفيلسوف ماركسي . غير أنه كانت لديه أيضا خصائص ذاتية كالغرور الزائف والميل إلى الديكتاتورية والتي ظهرت بشكل أوضح خلال السنوات السبع والثلاثين التي قضاها مهاجرا عندما انقطع عن الممارسة اليومية للنضال الثوري للبروليتاريا الروسية . وترتب على ذلك أن تدهورت بالتدريج مكانة بليخانوف كشخصية سياسية وكفائد الاشتراكية الديمقراطية الثورية . وبدأت تظهر في تفكيره بشكل متزايد العقيدة الجامدة والميل إلى الفلسفة المدرسية . ورغم أنه تعاون مع لينين تعاونا وثيقا في السنوات الأولى للقرن العشرين فقد انضم في أواخر ١٩٠٣ إلى المناشئة غير أنه شغل مكانا خاصا إلى حد ما بين صفوفهم ، وناضل بقوة ضد أنصار التصفيه ، بل وايد البلاشفة في بعض الأحيان . ليكن بليخانوف كان يجذب في آرائه الأساسية نحو المدشفية ، وبدأ ذلك واضحا خلال الحرب العالمية الأولى ، وعلى الاخص في عام ١٩١٧ عندما رفض ثورة أكتوبر .

وكان الزعيم المعترف به للمناشفة هوى . ٢ . تسيدر بارم الذي اشتهر باسمه الأدبي المستعار . ل . مارتوف . وهو ينحدر من أسرة من التجار وانضم إلى الحركة الاشتراكية الديمقراطية في مطلع شبابه . ولاشك في أن مارتوف كان صحفيا موهوبا رغم افتقاره إلى العمق ، فكان شديد التحيز في أحكامه . وتميزت كتابات مارتوف في مجادلاته مع البلاشفة دائما بدرجة من المستهترة والحقد والعداء الشخصي للينين .

وكذلك كان أعضاء البريد ، الاتحاد العام للأعمال الهولندية في ليتوانيا وبولندا وروسيا ، على اتصال وثيق بالمنشأه . وقد تشكل البريد ، في ١٨٩٧ وانضم فيها بعد إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي للأعمال الرس . وكان أعضاؤه يدعون إلى القومي والانفصاليه في حركة الملقه العاملة وأخذوا بالمواقف الانتهازية .

وكان حزب ، الاشتراكيين الثوريين ، الذي تشكل في أواخر ١٩٠١ وأوائل ١٩٠٢ يزعم أن له القيادة الفكرية والسياسية لحركة الفلاحين . وكان الاشتراكيون الثوريون يزعمون أنهم خلفاء ، الشعبيين ، الثوريين في السبعينات . وكان ، الشعبيون ، هم أول من حاول تحريك الفلاحين للنضال ضد القيصرية ، ولكنهم لم ينجحوا . وقد تحولوا بعد ذلك إلى الأعمال الارهابية ضد كبار الموظفين القيصريين ، وقاموا في ١٨٨١ باغتيال القيصر ألكندر الثاني .

وكان الاشتراكيون الثوريون يشيدون بالفلاحين الكادحين من جميع النواحي . ويدخلون في هذه الفئة جميع الفلاحين الذين يزرعون أراضيهم بأنفسهم دون استخدام عمال مقابل أجر . وكانوا يزعمون أن الفلاحين هم حفظة المثل العليا للاشتراكية . ويرون أن الفلاحين ، الكادحين والعزل والمثقفين ذوي الفكر الديمقراطي يشكلون مجموعا واحدا يطلق عليه اسم « الشعب » وهم يشاركون في الثورة باسمه .

ولما كان الاشتراكيون الثوريون يجمعون بصورة انتقائية بين أفكار الشعبية ، التي عفا عليها الزمن وبين مقتطفات من الماركسية ، فقد أخطأوا في النظر إلى حركة الفلاحين ضد ملاك الأراضي ، التي كانت في جوهرها حركة بورجوازية ، واعتبروها نضالا من أجل الاشتراكية . ومن ثم أعلنوا شعارهم المحير عن « اشتراكية الأراضي » . وكان هذا الشعار يجمع بين الفكرة الثورية لمصادرة الملكيات الكبيرة والفكرة الخيالية الرامية إلى المحافظة على المياعة

الملاحية القديمة التي كانت الاشتراكيون الثوريون يرون أنها تكاد تكون
جديدا للمجتمع الاشتراكي المقبل . ولم يكن هناك من الناحية العملية فارق يذكر
بين اشتراكية الاراضى ، التي دعا إليها الاشتراكيون الثوريون وبين تأمين
الاراضى ، ولكنهم أضفوا طابعا اشتراكيا ذاتقا على هذا الإجراء الاصلاحى
البورجوازى المصروف ، وبذلك زادوا من البلبلة في أفكار الفلاحين . ومع ذلك
فإن هذا البرنامج إذا وضع في إطار ثورة ديموقراطية ، فإنه يتفق مع اتجاه
الجمهير المريضه للفلاحين ويكتسب درجه من التأييد للاشتراكيين الثوريين
في الريف .

كان البرنامج السياسى للاشتراكيين الديموقراطيين يدعو إلى جمهوريه
ديموقراطية وحريات سياسيه ، وكان قريبا من مطالب الحزب الاشتراكى
الديموقراطى للعمال الروس في كثير من النواحي .

وكان تكتيك الاشتراكيين الثوريين يعتمد على الإرهاب الفردى . وقد قام
مناضلوهم باغتيال وزيرين للداخلية وأحد الدوقات والكثير من كبار الموظفين
والقادة العسكريين للتمصريه . ولاشك في أن الأعمال الإرهابيه قد ساعدت
في خلخلة الجهاز الحكومى لكن تلك الأعمال في ذاتها ما كانت بقادرة على تغيير
النظام السياسى للبلاد . كما كان هناك الوجه الآخر للعملة ، إذ أن الأعمال
الإرهابيه كانت حافزا للحكومه على للقيام بأعمال إنتقاميه ، وصرفت أنظار
القوى الثوريه عن العمل بين جماهير الشعب . وكان للتنظمات الاشتراكيه
الثوريه نشاط غير قليل في الريف وبين عمال المدن والطلبه والجنود والبحارة .
ورغم ما اتسم به الاشتراكيون الثوريون من ميل للغامرة وكثرة تغيير المواقف
فقد كانوا في الأساس في بدايه القرن العشرين حزبا ثوريا ديموقراطيا ، وناضلوا
مضد الاوتوقراطية ولذا وجد البلاشفة أن من الممكن عقد إتفاقات تضالبيه مؤقتة
معهم ، ولاسيما خلال التحركات المسلحة ضد النظام القائم . ومن أمثلة ذلك

الانتفاضة المسلحة في ديسمبر ١٩٠٥ . غير أن البلاشفة كانوا يَخوضون في الوقت ذاته مجادلات حادة مع الاشتراكيين الثوريين حول نظريه الكفاح النورى وممارساته .

وكانت الشخصيتان البارزتان بين قادة الاشتراكيين الثوريين : فيكتور شيرنوف وهو مفكرهم النظرى الرئيسى ومحرر جريدة الحزب ، وبوريس شافينكوف رئيس المنظمه المقاتله . وفى عام ١٩٠٦ كانت روسيا كلها تتحدث عن ماريا سبيريد ونوفا التى تبلغ من العمر ٢٢ عاما . فبعد محاولة لاغتيال أحد كبار الموظفين القيصريين الذى قام بوحشيه بقمع حركه للفلاحين فى محافظة تامبوف ، تعرضت هذه الفتاة للاغتصاب على يد ضباط مخورين وأرسلت إلى معسكر للأشغال الشاقه فى سيبيريا حيث بقيت حتى فبراير ١٩١٧ . وقد أصبحت فيما بعد من قادة الجناح اليسارى للاشتراكيين الثوريين . ومن الشخصيات الكريهه بينهم ١ . آزيف الذى كان عضوا فى اللجنه المركزيه للحزب الاشتراكي الثورى وكان مخبرا للبوليس فى الوقت ذاته . وأدى كشف أعمال آزيف الاستفزازيه فى عام ١٩٠٨ إلى انخفاض حاد فى مكانة الاشتراكيين الثوريين فى أعين الجماهير ، ولا سيما فى أعين المثقفون ذوى الفكر الديموقراطى .

وخلال ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ حاول نواب اللاحين فى مجلس الدوما إنشاء مجموعه « ترودودفيك » المستقلة التى كانت محاولة غير موفقه لإنشاء حزب سياسى مستقل للفلاحين وقد برز دور الترودوفيك على الأخص فى عام ١٩٠٦ عندما قاموا ، بعد إقدام القيصر على حل مجلس الدوما الأول ، بدعوة جماهير الفلاحين إلى حمل السلاح . غير أن الترودوفيك اتخذوا بعد ذلك موقفا أكثر اعتدالا وحددوا من نشاطهم السياسى إلى حد كبير .

ولمى جانب الاشتراكيين الثوريين والترودوفيك ، كان هناك أيضا

الاشتراكيون الشعبويون الذين اهتموا بالعمل السياسى بين الفلاحين وانفصلوا
عن الاشتراكيين البورجوازيين فى عام ١٩٠٦ . وكانت هناك أوجه نشاط مماثلة تقوم
بها منظمات مختلفة فى المناطق التى تغطتها القوميات غير الروسية . بيد أنه لم يكن
لها تأثير على مستوى القاعدة فى الريف ولم يكن فى الوسع مقارنة بتأثيرها على
الفلاحين بتأثير البلاشفة على بروياتاريا المدن ذات الوعى السياسى .

وهكذا كانت روسيا فى السنوات الأولى للقرن العشرين أشبه بإناة هائل
يغلى ، وإذا قارناه بما كان عليه فى أيام الماركيز دى كوستين لقلنا إنه كان منذ
أمد طويل على شفا الانفجار . وقد حدث الاندلاع الأول لليب فى عام ١٩٠٥ ،
وجاءت الحرب العالميه الأولى فقربت اندلاع اللهب المرة الثانيه وذلك ما حدث
فى أول أغسطس ١٩١٤

ثالثا : الحرب العالمية الاولى

الحرب الاقتصادية :

كانت الحرب العالمية الاولى من أكبر الكوارث في تاريخ البشرية . إذ أن عدد الدول المشتركة فيها بلغ ٣٠ دولة ، يتجاوز مجموع سكانها أكثر ١٥٠٠ مليون نسمة ، أى نحو تسعة أعشار سكان العالم جميعا . وقد جند في جيوش الدول المتحاربة أكثر من ٧٠ مليون جندي ، قتل منهم عشرة ملايين وجرح وأصيب أكثر من ٢٠ مليونا . وكان ذلك هو النشأ الفادح الذى اضطرت الشعوب إلى دفعه ثمنا للغامرة الدائمة التى خاضتها حكوماتها التى أشعلت حربا من أجل إعادة تقسيم العالم .

وقد بدأ الإعداد للحرب قبل اندلاعها بزمان طويل . وتشكلت في أوروبا كتلتان عسكريتان سياسيتان هما : الحلف الثلاثى ودول الوفاق . وأخذت الميزانيات العسكرية فى التضخم عاما بعد آخر ، وأخذت الدول فى تكديس الأسلحة والذخائر . وازداد اعتماد روسيا على بريطانيا وفرنسا سواء من الناحية المالية أو الاقتصادية . ومن الجانب الآخر زادت التناقضات بين روسيا وألمانيا حدة وتوترا . وذلك بالإضافة إلى أن القيصرية لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تنفذ مشروعاتها التوسعية معتمدة على نفسها .

وأدى ذلك بصورة منطقية إلى انضمام الاوتوقراطية القيصرية إلى معسكر دول الوفاق . ولكن روسيا من بين جميع الدول الكبرى ، كانت أقلها استعدادا لمحنة الحرب الشاقة سواء عسكريا أو اقتصاديا .

وكان ذلك في احدى المويل هو السبب في الهزائم التي منى بها الجيش القيصري
ففي خريف ١٩١٥ اضطرت القوات القيصرية إلى إخلاء غاليسيا وبولندا وجزءاً
من بيلاروسيا وبعض المحافظات على شاطئ بحر البلطيق . ودفعت ألمانيا والنمسا
والمجر ثمن هذا النصر مليونين من أرواح جنودهما ، لكن الجيش الروسي كان في
وضع أشد قسوة ، إذ فقد نحو ٣ مليون جندي بين قتل وجريح وأسير ،
وكاد يصاب بالشلل . وترجع هذه الهزائم أيضاً إلى الأخطاء التي ارتكبتها القادة
العسكريون القيصريون وغيرهم من كبار الموظفين ، وعدم توافر مساعدات فعالة
من جانب الحلفاء .

ومنذ أواخر عام ١٩١٤ ظهر أن الجيش الروسي يفتقر إلى المدافع والبنادق
فضلاً عن الذخيرة ، فكانت التعزيزات ترسل إلى الجبهة دون تسليح يذكر .

وفي الوقت ذاته كانت أزمة إقتصادية شاملة آخذة في الانتشار في أنحاء
البلاد وهددت بشل لإقتصاد البلد بأسره .

وحاولت روسيا أن تطبق ما فعلته بعض الدول المحاربة الأخرى من تنظيم
سير الإقتصاد والنقل على أسس رأسمالية الدولة . فشكلت سلسلة من اللجان
الخاصة لشؤون الدفاع تضم ممثلين للحكومة والبرجوازية ، كما شكلت لجان
عديدة للصناعات الحربية . غير أن هذه الإجراءات لم تتمكن من وقف اشتداد
الآزمة الحتمى . وترتب على دعوة المجندين أن فقدت الزراعة ما يقرب من نصف
العاملين فيها من الرجال الأشداء ، كما أصبح العمال الجدد يمثلون نحو ثلث القوى
العاملة في الصناعة .

وفي ربيع عام ١٩١٦ كان أكثر من ١٦٠٠ مصنع قد توقفت عن العمل ،
إلى جانب ١٥٠٠ مصنع أخرى أنقصت حجم إنتاجها . وكان للحرب أثر مدمر

على الاقتصاد الوطني لا لمجرد أن المنشآت الصناعية قد دمرت مادياً بل ولأن
الصناعة والزراعة قد تحولتا إلى مجال غير منتج على الإطلاق ، ألا وهو خدمة
الجيش والاستطول . وتذهب بعض التقديرات إلى أن الحرب كانت تستهلك نسبة
تصل إلى ٥٠ ٪ من الدخل القومي في عام ١٩١٧ .

وفي عدد من الصناعات التي كانت تعمل من أجل الجيش المقابل في الميدان ،
زاد الإنتاج بنسبة بلغت ٢٠٠ أو ٣٠٠ ٪ أثناء الحرب . ولكن الإنتاج في ١٩١٦
لم يزد من حيث القيمة في الصناعة في مجموعها عما كان عليه في ١٩١٣ إلا بنسبة
٢١ و ٥ ٪ ، وفي ١٩١٧ انخفض الإنتاج بما يقرب من ٢٥ ٪ . وحدث انخفاض
شديد في إنتاج البترول والصاب والحديد والمنسوجات .

وخيم شبح الإفلاس على البلاد . وخلال ٣٠ شهراً من الحرب بلغت
الاعتمادات العسكرية نحو ٦٠٠٠ مليون روبل ، وهو مبالغ يصل إلى ثلاثة
أضعاف ما كانت الحكومة تنفقه عادة في مثل هذه الفترة . ولتغطية العجز ،
لجأت الحكومة إلى زيادة الضرائب ، وأصدرت أذونات حكومية بقروض داخلية
بلغت قيمتها ٦٥٠٠ مليون روبل . وبلغت الديون الخارجية ٦٦٠٠ مليون روبل
وأغرقت البلاد بالنقود الورقية .

وفي ربيع ١٩١٧ تجاوز الدين الوطني ٤٠٠٠٠ مليون روبل ، وبلغت فوائد
الدين وحدها حوالي ٢٠٠٠ مليون روبل سنوياً . وفي ١٩١٧ كان حجم الدين
الوطني في روسيا يتجاوز حجمه في أي بلد من البلدان المحاربة الرئيسية الأخرى
فيما عدا بريطانيا .

وكذلك اضطرب النقل وسادته القوضى ، وأخذ عدد القاطرات والمركبات
المستهلكة في الزيادة باضطراد . وزاد حجم البضائع التي عجزت السكك الحديدية

عن نقلها عن حمولة عشرات الآلاف من العربات . وفي فبراير ١٩١٧ كانت
السكك الحديدية تتقل أقل من نصف الحصص الغذائية اللازمة للجيش في
الميدان .

وفي بداية مارس ١٩١٧ مرت أوقات لم تكن فيها إمدادات الخبز في موسكو
وبتروجراد تكفي أكثر من أيام معدودات . وفي كثير من قطاعات الجبهة التي
تضم مئات الألوف من الجنود الذين يلزم إطعامهم ، لم تكن تلك الإمدادات
تكفي لا أكثر من نصف يوم .

وفي الريف المحرب ، الذي فقد حوالي ٥ ملايين جواد ، انخفض إنتاج
الحبوب عما كان عليه قبل الحرب بما يقرب من الربع كما انخفض إنتاج الزيت
الملح . ورغم أن الريف ، ولا سيما المناطق الشرقية ، كان به الحد الأدنى اللازم
من الأغذية ، فإن فوضى المواصلات وعمليات النهب ، والسوق السوداء التي
مارستها البورجوازية وملاك الأراضي جعلت البلاد على شفا المجاعة ، وبحلول
عام ١٩١٧ كان ثمن الخبز قد وصل إلى الضعف تقريبا ، وثمان الملح قد زاد ثلاثة
أمثال ، وثمان القطن قد ارتفع لما يقرب من خمسة أمثال ، وثمان الأحذية قد
ارتفع ثمانية أمثال . وأخذت الاضطرابات الناشئة عن نقص الأغذية والهجوم
على محلات الأغذية في التزايد من شهر لآخر ، وأصبح الوضع في البلاد
يندر بكارهه .

النظام القيصرى يعانى حشجة الموت :

إن الحرب بكافة صورها تفرض على الدول المشتركة فيها وعلى الحكومات
التي أشعلتها مطالب خاصة مكثفه . ويصدق ذلك على الأخص على حرب عالمية
شاملة كحرب ١٩١٤-١٩١٨ . فلم يلبث النظام الاستبدادى الذي كان منذ

أمد طويل لا يحكم روسيا بقدر ما يقهر شعبه ذاته أن كشف خلال فترة قصيرة من الزمن عن عجزه الكامل على مواجهة المشاكل . وكانت إدارة جيش يضم ١٥ مليون جندي ، وجهاز الحكومة المعقد ، والنظام البيروقراطي الهائل تتطلب قدراً كبيراً من المعرفة والحنكة الإدارية والموهبة التنظيمية . ولكن ذلك كله كان مفقداً لدى طبقة الملاك المنحلة التي انقضت أوانها والتي كان يرأسها ، النيل الأول ، آخر قيصرية روسيا . وكان ذلك بعيداً عن إمكانيات النظام القيصري الفاسد الخانع ، والذي كانت فلسفته السياسية بكاملها — إذا كان له ما يمكن أن يسمى « فلسفة » — تتمثل في المحافظة على الأسس العتيقة للارثوقراطية والاحتفاظ بالسلطة والثروات والامتيازات بأي ثمن .

وقد وجد المؤرخون والصحفيون بعض المقارنات الواضحة البليغة التي تصور الازمة السياسية والفكرية والمعنوية التي سادت « القمة » الحاكمة في المجتمع الروسي في فترة الحرب . فكتبوا عن « كسوف روسيا الامبراطورية » ، وشبهوا نيقولا الثاني بسائق فقد صوابه يندفع بمركبته بسرعة إلى حافة الهاوية .

وكان من أثر الحرب أن أصبحت التناقضات التي تمزق البلاد أشد قسوة وأصعب احتمالاً ، ودفعت بالتناقضات الطبقيّة إلى نقطه الغليان .

والواقع أنه يصعب تصور تناقضات أشد وضوحاً من تلك التي كانت قائمة في روسيا في تلك الأيام : الخنادق تمتد آلاف الكيلومترات وفيها يقبع الجنود جائعين ، لا يجدون كفايتهم من الملابس ، وهم في بعض الأحيان بغير سلاح ، ينتظرون الموت بين الدم والأوحال ، بينما هناك غرف القصور المتألقة التي يوضع فيها العطر ، وتحاك فيها المؤتمرات ، وتحفل بالتهتك ، ولا يشعر سكانها حتى براثمة الحرب النذرة . ونجد القرى الروسية الفقيرة الفارقة في الثلوج والتي كادت تخلو من

سكانها ، وكذلك القاعات الفاخرة لمطاعم العاصمة حيث تتكلم زجاجة الشمبانيا أكثر مما يستطيع العامل العادي أن يكسبه خلال شهر من العمل الشاق القاصم للظهور .

ونجحت أزمة السلطة على جميع مستويات : فالموظفون في المواقع الإدارية العليا لم يتخذوا القرارات اللازمة في الوقت المناسب والتي تدعو إليها الحاجة السياسية ، كما أن الموظفين في المراتب الدنيا لم يكونوا قادرين على تنفيذ مثل تلك القرارات بدقة وعلى وجه السرعة . وكان الجهاز الحكومي بأسره موبوءا بالرشوة والمحسوبية والتعطيل البيروقراطي والمعجز الإداري . ولم يكن لدى الحكومة إستراتيجية مدروسة ولا تكتيك مرن ومعقول ، وكانت الحكومة في حالة تفسخ وانهيار قبل سقوطها الحتمي الوشيك .

وفي أعقاب صيف ١٩١٥ الذي لقي فيه الجيش هزائمه فادحة في الجبهة ، وعندما بدأت المشاعر الثورية والمعارضة تنمو في البلاد بدأ ما سمي وقفز الضفادع في المناصب الوزارية ، — إذ كانت الحكومة تشكل ويعاد تشكيلها ويصحب ذلك تغييرات سريعة وغر متوقعة في المناصب الإدارية العليا . ولجأت الاونوقراطية إلى هذا التكتيك لتكتسب مظهر الاستقرار السياسي على الأقل . وكان نيقولا الثاني مضطراً لإيجاد توازن بين الجناح اليميني المتطرف وبين المعارضة في الدوما ، ولذا بدأ في تغيير وزرائه بسرعة متزايدة . لكن جميع تلك التغييرات تميزت بظاهرة غريبة لم تتغير وهي أن كل وغد خانع كان يستبدل بوغد خانع آخر ، بل وربما أكثر خنوعاً . وكان السياسي المحدث يستبدل بسياسي محدث آخر ، وغالباً ما يكون بلا شخصية ، والرجعي يستبدل برجعي آخر ، وغالباً ما يكون نظيره ضحالة وقسوة .

وإذا كان ا . ل . جوريمكين البالغ من العمر ٥٠ عاماً والذي أخرجوه

تفوح منه رائحة النفثالين ، وعينوه رئيساً للوزراء في بدايه ١٩١٤ قد نجح في
المقاء في منصبه لعامين كاملين ، فإن خليفته والذي لا يقل عنه رجيه ب . ف .
ستورمر لم يكمل في المنصب غير عشرة أشهر وأعقبه ا . ف . ترييوف فلم يبق في
المنصب غير شهر ونصف شهر وبقى آخر الرؤساء الذين عينهم القيصر
ن . د . جوليتسين شهرين إثنين .

وخلال شهر الحرب الثلاثين التي سبقت الإطاحه باللاتوقراطيه ، تغير
سته من وزراء الخارجيه ، وأربعة من وزراء الحرب ، وأربعة من وزراء العدل
وثلاثة من وزراء النقل وكثير غيرهم . وقد تم التغيير في بعض الحالات نتيجة
لمواقف مخزيه فوزير الحرب ف . ا . سوخوملينوف مثلاً قد فصل من منصبه
في يونيو ١٩١٥ تحت ضغط التيار الليبرالي بعد سلسلة من الهزائم الكبرى
في الحيه .

وفي مارس ١٩١٦ ألقى القبض عليه بتهمة سوء استخدام السلطة وإقامة
علاقات مع الجواسيس الألمان . وأثناء محاكمته التي عقدت في خريف ١٩١٧
اسقطت عنه تهمة الخيانة ولكنه أدين لعدم قيامه بإعداد الجيش إعداداً كافياً
للحرب وحكم عليه بالاشغال الشاقة مدى الحياة . ثم خفف الحكم فيما بعد
إلى السجن .

ومن ناحية أخرى فقد أقيل وزير الخارجية س . د سازونوف نتيجة لمناورات
الدوائر البيئية المتطرفة والتي اتهمته بالتبعية ، لبريطانيا والعطف الواضح
على الدوما .

أما ب . ف . استورمر فكان غادعاً وبلا مبادئ حريصاً على جمع الثروة
على حساب الحكومة ، ولم يكن له برنامج سياسي خاص به . وكان ذلك هو

أكثر ما يناسب القيصر والقيصرة . وهما لم يتخليا عنه إلا مضطرين تحت ضغط الضجة السياسية التي حدثت في الدوما عندما لاثم صراحة بالخيانة .

وقام وزير الداخلية ١٠١ . خوفوستوف باحتلاس أكثر من مليون روبل من أموال الحكومة خلال توليه الوزارة ، كما أن آخر وزراء الداخلية ا . د . بروتوبوف ، وهو أصلا يملك مصنع نسيج فاشل ويملك مساحات شاسعة من الأرض ، فلم يتردد في الدخول في مغامرات مالية من كل نوع وفي صفقات مريبة . ولم يكن معروفًا عنه الكفاءة الإدارية أو السياسية بل الكفاءة على تسلية نيقولا الثاني وأسرته وإقامة الحفلات الخاصة في القصر الملكي المسمى « تساركوييه تسيلو » بالقرب من سان بطرسبرج . وكان هذا هو طراز الرجال الذين تمتعوا بثقة القيصر وحكموا باسمه دولة كبيرة وشعبا عظيما .

إلا أن قضية راسبوتين كانت أوضح مثال لازمة الحكم . فالمحسوبيات أمر مألوف ومعروف عن أي نظام إقطاعي إستبدادي ، ولم يكن النظام الروسي استثناء من ذلك . ولكن لم يحدث من قبل أن منحت قوة هائلة لشخص مريب ومجرد من الأخلاق مثل ما حدث مع جريجوري راسبوتين وكان ذلك انعكاسا للتفسخ الكامل وتدهور نظام حكم آل رومانوف ، والذي دمع معاصره إلى القول بأن النظام قد تمفن حتى جذوره . .

وجريجوري راسبوتين فلاح سيبيري نصف أمة . كان في يوم من الأيام عضوا في جماعة دينية بجهولة ، وكان من لصوص الخيل . وقد التقى بنيقولا الثاني لأول مرة في عام ١٩٠٥ العاقل بالاحداث ، ولم يمض زمن طويل حتى عرف بأنه « رجل مبروك » بل و « قديس » . وكان لنظرته الشيطانية أثرها السحري على سيدات البلاط مثل أنا فيروبوفا التي كانت مقربة إلى القيصرية بل وعلى السكندرا

فيودور فنانا نفسها ، وقد تمكن راسبوتين ، وهو المذاخر الماهر وذو الاطاع البعيدة ، من إقناعها بأنه الشخص الوحيد القادر على أن ينقذ ، بصلاته ، إبنتها الكسرى المصاب بمرض عضال وحلول البركة على جميع أعمال القيصر في حكم البلاد . وفي مقابل ذلك كان كل شيء مفعوراً لراسبوتين : القحة ، والانحلال المشين ، وبجونه الخمر ، وتجاوزاته البشعة . ولاشك في أن تأثير راسبوتين لم يكن بلا حدود ، ولا سيما على القيصر ، وكان مضطراً لأن يكون متيقظاً دائماً لآى تغيير يطرأ على مزاج سادته العظام ، وأن يتتبع آراء المحيطين بالعرش . ومع ذلك فلم يعين وزير واحد في فترة الحرب دون الحصول على بركة راسبوتين . وكان المضاربون في البورصة ورجال البنوك يطلبون عونه ومساعدته (مقابل أتعاب مجزية ، بطبيعة الحال) . وكانت غرفة استقباله تزخر دائماً بكبار الموظفين وسيدات المجتمع الذين ينتظرون المشول بين يديه . وكان رجل الدين لا يتدخل في السياسة الداخلية فحسب بل حاول أيضاً أن يقدم المشورة في مسائل الاستراتيجية العسكرية .

وكان ذلك كله دليلاً على الفساد الشديد والانحلال المعنوى ، والدروشة ، التي انحدرت إليها المجموعة الحاكمة . ومجرد أن فلاحاً جليلاً نصف أمى كان يمثل الشعب الروسى في أعين القيصر وزوجته . وأن تقريبه إليها كان في رأيها رمزاً لتحلى النظام الاوتوقراطى ، بالروح الوطنية ، يشهد على الانحدار والانحطاط المعنوى بساكنى قصر الشتاء بل وللنظام القيصرى كله .

ولذا فإن المحاولات التي بذلها بعض النبلاء لإنقاذ القيصرية بتخليصها من بين يدى راسبوتين والمطعنين والذين لم تلوثاً فقط آخر سلالة رومانوف بل تلوثاً أيضاً فكرة الملكية ذاتها ، لم تعد قادرة على تحقيق النتيجة المطلوبة .

وقد قتل راسبوتين قتلة شنيعة في ١٧ ديسمبر ١٩١٦ على يد ديمترى رومانوف ابن عم القيصر وواحد من أغنى أغنياء روسيا ، والاميرف . يوسوبوف

وهو أيضا من أقارب نيقولا الثاني و ف . يوريشكيفيتش أحد الأعضاء اليمينيين في مجلس الدوما .

غير أنه لم يكن لهذا العمل ، البطولي ، من وجهة نظر القتل ذوى المراكز المرموقة ، من أثر غير زيادة اندفاع الحكومة في إجراءاتها الرجعية . وبقي شح راسبوتين يخيم بشكل ملموس على القيصر والقيصرة الذين استمرا في دفع البلاد نحو الكارثة بعناد وتعصب .

وما زالت الكتابات في العالم الخارجى تذكر من الحديث عن القيصر والقيصرة ومنذ آمد غرب بعيد كانا هما الشخصيتين الرئيسيتين في فيلم بعنوان « نيقولا والكسندرا » لقي نجاحا كبيرا في دول الغرب . فالمؤرخون الغربيون يجمعون بعض الذكريات من هنا وهناك ويصورون القيصر على أنه رجل جذاب متواضع ، مذهب ورب أسرة جدير بالاحترام . ويقولون إنه لم يكن موهوبا كرجل دولة بغير شك ولكنه بذل جهده من أجل خير بلاده في حدود استطاعته . ويرى كثير من الكتاب في الدول الاخرى أن نيقولا كان ضحية ظروف غير ملائمة ، منها ضعف إرادته وتآمر « قوى الظلام » وأنه لم يكن بأى حال مصدرا للشر الاجتماعى .

وأخيرا وليس آخرا فإن إطلاق الرصاص على أسرته في عام ١٩١٨ أضفى على شخصية آخر قيصرة روسيا مسحة الاستشهاد في عين كثير من القراء الغربيين وجعلت منه شخصية تراجيدية ، وأحال السنوات الأخيرة لحكمه إلى مزيج من الروايات البوليسية والميلودراما .

ولا بد أن يوافق المرء بطبيعة الحال على رأى القائل بأن نيقولا الثانى ، وهو شخص محدود المواهب تماما ، لم يكن شخصية مناسبة للظروف ، أو بعبارة أدق

سير التاريخ . وكان من عادته أن يقول صراحة لوزير خارجيته سازونوف :
« انى أنا سيرجى ديميترييفيتش أحرص على ألا أفكر طويلا فى أى موضوع ، وأرى
أن هذا هو السبيل الوحيد لحكم روسيا . ولولا ذلك لكنت قد أصبحت فى عداد
الأموات منذ أمد طويل » . كما يمكن للمرء أن يوافق ، بشئ من التحفظ ، على
أنه كان هناك حول القيصر بعض « أساطين الشر » ، ولاسيما راسبوتين ، وزوجته
القيصرة . لكن النقطة الهامة أن نيقولا الثانى نفسه لم يكن ذلك الرجل المسلم
الذى يود بعض المعجبين به والمدافعين عنه أن يصوروه . فقد كان شديد التعصب
لفكرة الاوتوقراطية ، ويؤمن إيمانا أعمى بحب رعاياه له . وكان معروفا
بأنانيته وعدم اكتراثه للآخرين ، وأفقه محدود ولا تتجاوز نظره نظرة عقيد فى
الحرس الامبراطورى . وكان دؤوبا وذا ذاكرة قوية ، لكنه فى أمور الحكم
لا يبدو أن يكون « سياسيا ضئيل النامة » ، لم تكن له قدرة على الرؤية ، والتطلع ،
ولا القدرة على استخلاص الدروس أو توقع الأحداث . فبعد الهزائم التى منى بها
الجيش الروسى فى حملتى الربيع والصيف فى عام ١٩١٥ ، تولى نيقولا مهمة القائد
الاعلى للجيش . وكشف فى هذا المنصب عن افتقاره الكامل للكفاءة العسكرية .

وبذا كان يحكم روسيا رجل محدود المواهب وعنيد ، يضحى فى كل خطوة
بمصلح البلاد وشعبها على مذبح شهواته واعتقاداته وأوهامه . لقد كان رجل
مثقل الضمير — وتلك حقيقة تاريخية لا شك فيها — بدماء مئات الآلاف الذين
قتلوا خلال المذابح التى تعرض لها الثوريون وفى ساحات المعارك فى حربين
لامصلحة فيها للشعب أو الوطن واللذين أعلنتا دون شعور بالمسؤولية وانتهاء
بهزيمة فادحة .

وزوجة نيقولا ، التى كانت قبل الزواج - الاميرة الالمانية اليكسى هيدارمستاد -
سريعة الانفعال بل وهستيرية . وكانت تمنى أن ترى عزيزها « نيكى » صورة

جديدة من إيفان الرهيب ، قادراً على سحق أى معارض لرأيه . ولا شك فى أن شخصيتها العنيدة والمشاكسة ، وكراهيتها لكل ما هو روسى ، وخضوعها المطلق لنفوذ راسبوتين كان لها دور غير قليل فى تدمير سمعة النظام الاوتوقراطى سواء معنويًا أو سياسيًا والتمجيد بعزله . وذلك إلى أن يقولوا والكسندرا ذاتها كانا نتاجا لنظام إجتماعى وسياسى لم تعد له جدوى أو فائدة .

وينبغى آخر الأمر أن نقول أن الاخطاء العديدة التى وقع فيها نيقولا الثانى لم تكن هى التى حددت مصير الملكية ، وإنما حدد مصيرها الضعف الشديد الأساس الاقتصادى والاجتماعى لنظام أسرة رومانوف وفقدتها لكل احترام فى عين الطبقات الحاكمة ، فضلا عن جماهير الشعب . فهذه العوامل جميعا مهددت الطريق للانقياد السريع ، بل الصاعق للقيصرية فى فبراير ١٩١٧ ، عندما أنهى الشعب النازى النظام الاستبدادى الذى استمر ٣٠٠ عام خلال أسبوع واحد .

الشعب يناضل والبورجوازية تتسلل الى السلطة :

كانت ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ فى روسيا أولى المعارك الثورية العديدة فى القرن العشرين المعاصر ، عندما كانت البلاد مشتعلة بالثورة . فى تلك الفترة أضرب ما بين ٥ ، ٧ ملايين عامل فى المدن ، وحدثت على الأقل ١٨٠٠ حركة تمرد بين الفلاحين فى الريف ، وحدثت مئات الاضطرابات وحوادث التمرد فى الجيش . والاسطول ، كما كان هناك العديد من الإضرابات والمظاهرات الطلابية ومظاهر الاحتجاج من جانب الاقليات القومية التى تضطهدها القيصرية .

هذه بعض الحقائق البارزة التى تميز تلك الفترة التى كانت حاسمة بالنسبة لروسيا بل وبالنسبة للعالم أجمع . ورغم أن الثورة الأولى انتهت بهزيمة الجماهير.

العاملة فإن الاوتوقراطية لم تسترد قوتها بالكامل في أى وقت بعد الضربة التى تلقتها فى ١٩٠٥ - ١٩٠٧ .

وبعد سنوات قليلة هبت البروليتاريا الروسية مرة أخرى لتتأهل من أجل الحرية والاستقلال . فقبل إعلان الحرب ظهرت المتاريس فى شوارع سانت بطرسبرج كما ظهرت فى عام ١٩٠٥ . وفى ١٩١٤ أضرب مرة أخرى أكثر من مليونين من العمال فى روسيا لإحتجاجاً على استبداد الاوتوقراطية والبورجوازية وضد العسكرية وخطر الحرب العالمية .

وفى الشهور الاولى بعد بداية الحرب نجحت الحكومة القيصرية فى إخماد النيران الثورية . فى ظل ظروف الحرب زادت بشكل حاد الإجراءات الإنتقامية ضد أبسط مظهر من مظاهر السخط على النظام القائم . واستدعى الكثير من العمال والفلاحين ذوى الفكر الثورى للخدمة العسكرية وأرسلوا إلى الجبهة ، وسقط جانب من الاهالى فريسة للدعاية السوفيتية من جانب السلطات القيصرية والصحافة الرأسمالية .

وحتى فى الايام الاولى للحرب ، فإن عمال روسيا التقدميين والحزب البلاشنى أفهموا القيصرية أن الكفاح الثورى سوف يستمر حتى والبلاد فى حالة حرب ، فلا هدنة مع الاوتوقراطية والبورجوازية ، ، لئلا نعلن الحرب على الحرب ، ، كان ذلك هو رد البروليتاريا الروسية وحزبها الذى أسسه لينين على دعوة الطبقات الحاكمة إلى ، الوحدة الوطنية ، لدحر العدو الخارجى . وكانت الطبقة العاملة الروسية هى الطبقة الوحيدة فى المجتمع الروسى التى صمدت بوجه عام وقاومت التيار الجارف للقومية والسوفيتية وتمسكت بإخلاصها لمبادئ الاممية البروليتارية .

وبينما انحدرت أحزاب الدوليه الثانيه ، بما في ذلك أغلبيه المناشفه والاشتراكيين
والثوريين الروس ، إلى الشوفينيه الاجتماعيه الصريحه أو المستتره ، قام البلاشفه
بشن حمله واسعه النطاق ضد الحرب . وكان لينين في ذلك الحين في خارج البلاد ،
في بولندا أولا ، ثم في سويسرا منذ سبتمبر ١٩١٤ . وقد وضع برنامج عمل واضح
للالشترائيين الديمقراطيين الثوريين في ظروف الحرب ، كانت أهم نقاطه :
لا تأييد للحكومات الإمبرياليه ، وضروره النضال ضد الشوفينيه ، والاستمرار
في الإعداد للثورتين الديمقراطيه والاشتراكيه وإقامة دوليه جديده هي الدوليه
الثالثه ، برينه من الانتهازيه .

وكان لينين يهفئ الحرب بفضا شديدا لما تجلبه على ملايين الكادحين من
أحزان ومآسى ولكنه لم يكن مجرد داعية سلام يحلم بانتهاء نزيف الدم وعودة
العالم إلى حالته السابقه التي تنذر بالمزيد من المنازعات الإمبرياليه .

ولما كان العمال قد أخفقوا بسبب ضعفهم وانقسامهم في منع الحرب ، فقد
رأى لينين أنهم يجب أن يبذلوا كل ما في وسعهم لاستخدام الازمه التي جلبتها
الحرب لتقريب الثورة البروليتاريه وإقامه نظام اجتماعي جديد خال من الحروب
واستخدام العنف من جانب دولة ضد أخرى .

ومن ثم فقد ذكر لينين بصراحه إنه ينبغي على الاشتراكيين في جميع الدول
المتحاربه بلا استثناء أن يعملوا لهزيمة حكوماتهم في تلك الحرب المعاديه للشعب
والقائمه على النهب ، وتحويل حمام الدم الإمبريالي إلى ثورة بروليتاريه عالميه ترفع
على أعلامها شعار : د السلام للاكواخ والحرب على القصور . . .

وقد قدم لينين بيانه هذا في وقت اكتسحت فيه المستيريا والوطنيه ، أوروبا
بأسرها ، وأبدى الاشتراكيون من أعضاء البرلمان في الدول المتحاربه استعدادهم

للموافقة على الاعتمادات العسكرية . ولذا لم يكن غريبا أن تتهم الصحافة الحكومية
والرأسمالية لينين بالدعوة إلى العدمية الوطنية وانعدام المشاعر القومية بل وبالخيانة
العظمى لروسيا ، بل وألحت إلى أنه من السهل أن يكون الإنسان « انهزاميا »
بينما يتمتع بالأمن الشخصى الكامل فى سويسرا المسالمة والمحايدة .

غير أن لينين واجه أوقاتا صعبة فى الفترة الأخيرة من إقامته كمهاجر فى
سويسرا . ولا يستطيع المرء أن يقرأ دون تأثر الذكريات التى كتبها ناديجدا
كروبسكايا زوجته وصديقه المخلص . وقد كان وضع لينين يبدو لها فى بعض
الاحيان فى تلك السنوات الشاقة للحرب محزنا جدا . إذ لم يكن هناك منذها لطافته
المائلة . فإخلاصه غير المحدود للثورة وللطبقة العاملة ، ورويته الواضحة لمجريات
الأمور لم تكن لها جدوى وهو يعيش كمهاجر .

وجميع أعمال لينين فى الفترة بين ١٩١٤ و ١٩١٧ كانت لإنجازاً ذهنياً عظيماً
لصالح القضية الكبرى التى كرس لها حياته . وقد ذكر أحد أعدائه السياسيين ،
فيودور دان ، وهو من المناشفه ، انه لم يعرف فى حياته رجلاً غير لينين يمكن
أن ينشغل بالأعمال الثورية ٢٤ ساعة فى اليوم . ورغم أن الكلمة كانت مقصودة
كدعابه ساخرة إلا أنها كانت تحوى كثيراً من الحقيقة .

وقد تبدو حياة لينين أثناء الحرب من الناحية الظاهرية حياة رتيبة وعمله .
وكانت تبدو خالية من أى عنصر رومانسى أو بطولى . كان يقضى ساعات طويلة
فى المكتبة ، ويكتب كثيراً ويشغل بتحرير الصحف ويلقى الكلمات من حين
لآخر فى اجتماعات الحزب ، ويتبادل الرسائل مع رفاقه . وكان ذلك كل شئ .
يوماً بعد يوم ، من سبتمبر ١٩١٤ حتى مارس ١٩١٧ ، عندما تمكن آخر الأمر
من العودة إلى روسيا . ولكن الشئ الحكيم وراء تلك الأعمال الروتينية فى
الظاهر ، كان عملاً ضخماً وهو إدراك جوهر العصر التاريخى الجديد

والاحتمالات التي انفتحت أمام تاريخ العالم ، والعمل لضم صفوف الحزب وقيادة الحركة الثورية في روسيا ، وجمع كل من بقي نشيطا ومخلصا في الحركة الاشتراكية الدولية بعد انهيار الدولية الثانية .

ووجدت شعارات لينين وأفكاره وخطه سبيلا إلى روسيا ، وأصبحت برنامج عمل المنظمات البلشفية التي أفلتت من المجهات القيصرية . ومن الأمور ذات الدلالة أنه حينما أصبح الاشتراكيون الاوريون وذرء في تلك الأيام وتعاونوا مع البورجوازية قامت السلطات القيصرية بإرسال الأعضاء البلشفية في مجلس الدوما الرابع إلى معسكرات الاشغال الشاقة في سيبيريا بسبب نشاطهم الممادى للحرب . وأطبقت جدران السجون على المئات من رفاقهم . وكان البلشفة هم الحزب السياسي الوحيد في روسيا الذي اعترض على الحرب الإمبريالية وقام بعمل إيديولوجي وتنظيمي واسع النطاق للأعداد لثورة جديدة .

وكانت التنظيمات البلشفية تحت قيادة اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ومكتبه في بتروجراد والذي أعيد إنشاؤه في خريف عام ١٩١٥ . ورغم أن اللجنة المركزية اتخذت مقرها الرئيسي في سويسرا ، فقد بقيت على اتصال مستمر بروسيا . وكانت جريدة سوتسيال ديموقراط ، التي يشرف لينين على تحريرها تصدر في سويسرا وتنقل سرا إلى روسيا . وفي روسيا ذاتها كانت تصدر أكثر من عشرين جريدة ومجلة بلشفية ، ويصدر أغلبها في الخفاء . وقامت المنظمات البلشفية في روسيا ، إلى جانب ذلك ، بإصدار أكثر من ٦٠٠ منشور سري خلال الحرب ، وبلغ العدد الإجمالي للنسخ الصادرة منها حوالي مليوني نسخة . وقد وزعت في نحو ٢٠٠ مدينة وغيرها من المراكز الآهلة بالسكان . وكانت تبلغ الشعب الأنباء الحقيقية عن الحرب ، وقاد البلشفة كافة أشكال حركة الطبقة العاملة كما نشطوا في الريف وفي الجيش والأسطول .

وأصبحوا الطليعة الامة الحققة للحقيقة العاملة الروسية ، وفاة الاحتجاج الشعبي
على حرب السلب والنهب .

ونظراً للارتفاع الشديد في تكاليف الحياة انخفضت الأجور الحقيقية بنسبة
١٥ - ٢٠٪ في آخر عام ١٩١٦ عما كانت عليه في عام ١٩١٣ . وكثير من
الاحتياجات الضرورية لم يكن يباع إلا بأسعار فاحشة بينما كان الالهالى مضطرين
إلى الوقوف في طوابير طويلة للحصول على السلع الاخرى . وأدى سوء التغذية
والمساكن الباردة الرطبة إلى انتشار الامراض والانهاك بين الجماهير الكادحة .
ووقع العبء الاكبر على النساء والاطفال . ووصل يوم العمل المتوسط في
الصناعة ، بما في ذلك ساعات العمل الإضافية ، إلى ١٦ ساعة . وكان من أثر
ذلك وفقاً لما جاء في تقارير عملاء البوليس أن أصبح معظم العمال بحلول حريف
١٩١٦ ، على استعداد للقيام باضطرابات خطيرة من أجل الغذاء ، حتى في
بترسبرج التي كانت الأجور فيها تزيد عن المتوسط السائد في البلاد
زيادة طفيفة .

وكانت الفوضى الاقتصادية ، والانحلال المعنوي « لائقه » الحاكمة والمزائم
على أوجهه ، والخطط الموضوعه لإضفاء الطابع العسكري على الصناعة — كانت
كلها من مصادر الخط والاضطراب السياسى بين جماهير الشعب الكادح .
وأدى العمل الثورى للبلاشفه وأعضاء الكثير من المنظمات الثورية الاخرى ،
ولاسيما الاشتراكيين الثوريين اليساريين إلى تكشيف مشاعر الاحتجاج التلقائى
ومضاعفها وتحويلها إلى نضال منظم واع ضد الحرب والنظام الاوتوقراطى .

واشترك نحو ٢٥٠٠٠٠ عامل في التحركات في المناطق الصناعية في الفترة
بين فبراير ويوليو ١٩١٥ . . وخلال الشهور الستة التالية تجاوز عدد المضربين
٤٣٠٠٠٠ ، وقدم قرابة نصفهم مطالب سياسيه مختلفه . وفي عام ١٩١٦ شارك

في الإضرابات أكثر من مليون عامل من بينهم نحو ٣٠٠ ٠٠٠ أضربوا عن العمل لأسباب سياسية .

والملاحظ أنه في ظل ظروف الحرب يصبح الحد الفاصل بين الإضرابات الاقتصادية والسياسية غير واضح ، لأن أى إضراب اقتصادي ، ولأسباب في الصناعات الحربية ، يكتب أهميته السياسية كبيرة . وكثير من الإضرابات التي بدأت لأسباب اقتصادية تحولت بالتدريج إلى تحركات سياسية .

وانتشرت إضرابات التضامن في كثير من المصانع بل وفي كثير من المدن . وكان الفلاحون في الوقت ذاته يزدادون فقرا . وفي عام ١٩١٧ كان ٣٦ ٪ من مزارع الفلاحين في روسيا الاوربية لا تملك الواحدة منها جوادا خاصا بها ، وتوقف ١٨ ٪ منها عن الزراعة تماما ، كما أن ١٣ ٪ من الفلاحين لم يكونوا يملكون أرضا . وفي ظل هذه الظروف زاد أيضا عدد تحركات الفلاحين بصورة مضطردة . وبجمل نحو ٣٠٠ تحرك خلال عام ١٩١٦ ، كانت في معظم الأحيان اضطرابات ناشتة عن ارتفاع الأسعار ، فقد دمرت خلالها بعض محلات بيع السلع في الريف . ثم وقعت بعد ذلك المصادمات بين الفلاحين والملاك والبوليس (نتيجة رفض دفع إيجار الأرض ، والاحتجاج على الاستيلاء العسكري على المحاصيل وما إلى ذلك) . وجاء في تقارير البوليس : إنه من الملاحظ في جميع القرى أن هذه اضطرابات ثورية شبيهة بما حدثت في ١٩٠٥ - ١٩٠٧ . ولجميع يناقشون المسائل السياسية ويتخذون القرارات الموجهة ضد الملاك والتجار ، وهناك خلايا تشكلها مختلف التنظيمات . . . ولذا فإن الفلاحين سيكونون بغير شك قسما فعالا جدا في حركة جديدة حتمية ، .

ولم يعد الجيش والاسطول يمكن الاعتماد عليهما من وجهة نظر السلطات القيصريه . وتبجلى ذلك في عمليات الهروب الجماعية من الجيش ، والانخفاض

الحاد في الانضباط العسكري ، والتآخي مع الجنود الألمان والتمساريين ، وكذلك
في الأعمال الثورية الصريحة ضد القيصرية . وعلى سبيل المثال فقد حدثت
تحركا لرجال البحرية في أسطول الملبق في ١٩١٥ و ١٩١٦ ، وفي أكتوبر
١٩١٦ رفض جنود إحدى السرايا العسكرية في بتروجراد أن يملقوا النار على
مظاهرة للعمال . وقامت التنظيمات العسكرية البلشفية بعمل سياسي كبير في القوات
المسلحة ، ولا سيما في الجبهة الشمالية وفي أسطول البلطيق . وفي أواخر ١٩١٦
وأوائل ١٩١٧ بدأ الجنود في رفض القيام بالمحوم أكثر فأكثر . وهناك سرايا
بأكملها رفضت الانصياع لأوامر قادتها . وكما قال الضباط القيصريون أنفسهم
فإن الجيش لم يعد جيشا بل تحول إلى قوة ثورية للشعب .

وأخيرا وليس آخرا فإن الشعوب غير الروسية ، التي اضلهدا القيصر ،
بدأت في الانضمام إلى الحركة المعادية للحرب في ١٩١٦ . فقد هب فقراء المدن
والريف في كازاخستان وآسيا الوسطى في أوائل يوليو من ذلك العام يحتجون
على جمع المواطنين للخدمة العسكرية ، واستمرت حركتهم حتى ربيع ١٩١٧ . وكان
يقود هذه الحركة ا . إيمانوف وهو ابن أحد الرعاة الفقراء ، و ا . يانفي الدين
أحد أعضاء الحزب البلشي . وضمت الحركة جيشا ثائرا يبلغ تعدادة ٥٠٠٠٠
رجل شن حرب عصابات جريئة ضد القوات القيصرية .

وبذلك نشأ في البلاد وضع ثوري منذ خريف ١٩١٥ ، وأصبحت روسيا
على أبواب ثورة جديدة منذ أواخر ١٩١٦ . فقد ظهرت فيها جميع علامات
الآزمة الثورية التي أوضحها لينين : كانت هناك أزمة في سياسة الحكومة ،
وزادت معاناة الطبقات المقهورة وحاجتها أكثر مما كانت في أي وقت مضى ،
ونشبت عن ذلك زيادة كبيرة في نشاط الجماهير ولا سيما بين العمال .

وفي تلك الظروف زادت أيضا المقاومة التي تبديها البورجوازية الليبرالية

ساخطين للهزائم العسكرية للفادحة التي منيت بها القيصرية ، وعجزها عن مواجهة الحركة الثورية في داخل البلاد ، ورفضها المنع لاقتراس السلطة مع رجال الأعمال .

ولم تكن الحرب هي التي أدت إلى الثورة بل كانت جذورها ترجع إلى التناقضات الداخلية العميقة للواقع الروسي . ولكن لاشك في أن الحرب قربت أجلها ، إذ كشفت عن الفساد الكامل للنظام القيصري وقادت جماهير الشعب إلى اليأس ، ودفعت إلى حافة الكارثة . كما أن الحرب مكنت الرأسماليين الروس من جمع ثروات فاحشة . وقد حققوا في بعض الحالات أرباحا تراوحت بين ٣٠٠٪ و ١٠٠٠٪ من العقود العسكرية وقد عبر الفريق مانيكوفسكي المسؤول عن تموين الجيش بالذخيرة عن رأيه وهو يبلغ القيصر بتلك الظواهر فقال مرة ساخطا : يا صاحب الجلالة ، إن هذه سرقة صريحة ، فما كان من نيقولا الثاني إلا أن قدم له نصيحة أقرب إلى الآراء الفلسفية ودعاه إلى عدم إزعاج الجماهير . ولكن إذا كان النظام الاوتوقراطي يمد البورجوازية بإعانات سخية وعقود مجزية ، فلم يكن يفكر إطلاقا في منحها أي قدر من السلطة السياسية .

وحرصت الحكومة على أن تنحصر أعمال لجان الصناعات الحربية التي تشكلت عام ١٩١٥ في مجرد المساعدة ، في تزويد الجيش والاسطول بالأسلحة والمعدات ، بينما اقتصر عمل مجموعة الزمستفو والعصبة المدنية ، واللذين كانتا لضمان عناصر ليبرالية ، على إغاثة المصابين واللاجئين ، كما اهتمتا بدرجة ما بتموين الجيش . أما إقتسام السلطة مع البورجوازية فكان أمرا غير وارد في روسيا الاوتوقراطية ، واقتصر دور مجلس الدوما على المجادلات التي لا تنتهى ، وإن كانت حادة في بعض الأحيان ، حول مختلف جوانب النقص سواء في الجبهة أو في المؤخرة .

(م ٧ - ص . الامبراطورية)

وعندما اشتعلت نيران الحرب لجأ المكاديت للبورجوازية الليبرالية
الروسية ، إلى المكف عن المعارضة . وقالوا صراحة أنه لا بد من طرح الخلافات
الداخلية جانباً أثناء الحرب ، والقيام بالواجب المقدس بالنسبة للشعب الروسي
قائمه ألا وهو الإبقاء على روسيا الموحدة المترابطة دوله عالميه كبرى . ولكن
في ربيع ١٩١٥ كان ، الحماس الوطني ، في صفوف البورجوازية قد أخذ مكامه
والتفت على الوطن ، لتنبع ذلك بعد أمد قصير المطالبة بإنشاء ، حكومة الثقة ،
التي تضم قادة الأحزاب البورجوازية .

وفي أغسطس ١٩١٥ ، عندما بدأت ندس بصورة متزايدة أعراض الازمه
الثورية شكلت معظم الأجنحه المؤلفه من البورجوازية وأصحاب الاراضى في
مجلس الدوما (فيما عدا أقصى اليسار) وبعض أعضاء مجلس الدولة ماسمى
« الكتله التقدمية » ، وطالبوا بتحد أدنى من الإصلاحات السياسية حتى يمكن السير
بالحرب إلى النصر ومنع قيام ثورة جديدة . غير أن الحكومة القيصرية أوقفت
عند جلسات الدوما في سبتمبر ١٩١٥ ، وأفهمت أعضاءه بوضوح أنه لا مجال
للحديث عن الإصلاح ، فضلا عن تشكيل حكومة برجوازية أو حتى حكومة
أكثر ليبرالية . وكان رد أعضاء مجلس الدوما على ذلك أن أطلقوا هتافهم
التقليدى « عاش القيصر ! » ، وتفرقوا بسلام ودعت « الكتله التقدمية » ، التي
انعزلت عن القوى الديمقراطية إلى « الالتزام بالهدوء » ، وبذلك اعترفت بعجزها
الكامل . وكشف الليبراليون مرة أخرى عن أنهم لا يستطيعون ، ولا يريدون ،
أن يخوضوا تضالا صريحا من أجل السلطة ، ومن الواضح أن خوفهم من الثورة
كان أكبر من سخطهم على الاوتوقراطية .

وعندما وصل لإذلال النظام في خريف ١٩١٦ إلى حد لا يطاق ، إلى درجة
أن أقرب أقرباء القيصر بدأوا يتحدثون عن ذلك شرع أفراد المعارض

البرجوازية في انتقاد الحكومة بعبارات أشد ، وانتقلوا من محاصرة النظام إلى الهجوم عليه ، وذلك بالامتنع الليبرالي للحكومة بطبيعتها المال . ومن أمثلة ذلك أن ب . ن . مليونكوف قال في كلمة ألقاها في مجلس الدوما في أول نوفمبر إنه يتهم الحاشية ، الملتفة حول القيصر ، بالتمريد لسلح منفرد مع ألمانيا وتحريك الاضطرابات ضد الحكومة ، وما إلى ذلك .

وفي الجو السياسي الساحن في تلك الأيام أنارت كلمة زعيم حزب السكاديت كثيرا من المناقشات . ورغم أن الرقيب حذنها فقد انتشرت في أنحاء البلاد وطبعات منها آلاف النسخ . وقد وصف المؤرخون المواليون للسكاديت ومن تبهم من المؤرخين في كثير من البلاد الأخرى كلمة مليونكوف في أول نوفمبر ١٩١٦ بأنها إشارة الهجوم الثوري ، رغم أن صاحبها وحزب السكاديت الذي يمثلها لم يكونا يقصدا أن ذلك إطلافا . ومن المهم أن مليونكوف ذكر في ختام كلمته وبعبارات صريحة وواضحة أن المعارضه في الدوما ستناضل ضد الحكومة ، بجميع الوسائل المشروعة ، ولم ينقض وقت طويل حتى قال س . ا . شدلوفسكي زعيم الكتلة التقدميه ، بعبارات أكثر صراحه انه ، بينما تمتقد الحكومه أننا دبر ثورة فإتنا في الواقع نسمى إلى منعها . . ونحن لانكسب شيئا بالهجوم على الحكومه ، وبذلك بقيت البرجوازيه الليبراليه متمسكة حتى النهاية بالتكتيك الذي جربته منذ عام ١٩٠٥ ، فبينما كانت جماهير الشعب تناضل صراحه ضد النظام الأوتوقراطي وتعارض الحرب ، تسلل الليبراليون في سكون إلى مواقع السلطة من وراء ظهرها على أمل أن يصلوا إلى اتفاق مع النظام على اقتسام المناصب الوزاريه .

وفي تلك الظروف يبدو أنه تم التفكير جديا في القيام بانقلاب في داخل حدود القصر . وكانت الفكرة فيه اقضاء نقولا الثاني والاكسندرا تيودورينا ، وانتقال التاج إلى ابنتهما الكبرى الذي يبلغ من العمر ١٢ عاما ، على أن يكون

ميخائيل الكسندروفيش شفيق النيقير وصياً على العرش . وكانت هذه الخطوة موضع حديث كثير في بعض الدوائر البرجوازية في أواخر ١٩١٦ وأوائل ١٩١٧ . وبعد الكثير من المناقشة والتردد وضع تصور عام للانقلاب . وكان المفروض أن يقوم المتآمرون بالإستيلاء على قمار النيقير أثناء مروره بين القيادة العامة في مدينة موجيليف وبزوجراد ، وأن يقوم ضباط الحرس باعتقال النيقير وإجباره على التنازل وإرساله إلى المنفى في الخارج . ولكن مضت أشهر طويلة دون اتخاذ خطوات عملية للأعداد للانقلاب من الناحية العملية . وقد اعترف مليوكوف بذلك فيما بعد عندما كتب يقول أنه وأصدقائه لا يجيدون التآمر . ولم يكن لجميع الاستعدادات للانقلاب أدنى تأثير على سير التاريخ .

فصبر روسيا كان من الحتم أن تقرره ثورة ولا يقرره انقلاب يديره ثلاثة البرجوازيون . وقد اعترف مليوكوف فيما بعد بقوله : « إن ثورة : ٢ فبراير لم تكن من صنعنا ، وقد حدثت رغم إرادتنا .

نهاية امبراطورية الصقر ذي الراسين

في بداية عام ١٩١٧ كانت روسيا على عتبة ثورة جديدة . فقد بلغت كراهية الشعب الأنوقراطية ذروتها . وكان كل طابور للخبز في المدن يتحول تافانيا إلى اجتماع سياسي تناقش فيه سياسة الحكومة بعبارات خالية من المجاملة .

وقد جاء في تقرير الرئيس فرع موسكو التابع لإدارة الأمن بصور فيه المشاعر العامة ، أن عبارات مثل « الضيق بالحال ، و « المدام الشديد ، و « السخط ، وما إليها لا تعتبر إلا تعبيراً خفيفاً على الواقع .

واستطرد التقرير إلى أنه يمكن القول بأن المشاعر الخالية إذا قورنت بالمشاعر التي مادت في ١٩٠٥ - ١٩٠٦ فلاشك في أن مشاعر تلك الفترة كانت أكثر تعاطفاً مع الحكومة . . وقد بلغت الجماهير درجة من التوتر والعداء بحيث

ميخائيل الكسندروف نقش شقيق القيصر وصياً على العرش . وكانت هذه الخطة موضع حديث كثير في بعض الدوائر البرجوازية في أواخر ١٩١٦ وأوائل ١٩١٧ . وبعد الكثير من المناوشة والتردد وضع تصور عام للانقلاب . وكان المفروض أن يقوم المتآمرون بالإستيلاء على قمار القيصر أثناء مروره بين القيادة العامة في مدينة موجيليف وبتروجراد ، وأن يقوم ضباط الحرس باعتقال القيصر وإجباره على التنازل وإرساله إلى المنفى في الخارج . ولكن مضت أشهر طويلة دون اتخاذ خطوات عملية للأعداد الانقلاب من الناحية العملية . وقد اعترف مليوكوف بذلك فيما بعد عندما كتب يقول أنه وأصدقائه لا يجيدون التآمر . ولم يكن لجميع الاستعدادات للانقلاب أدنى تأثير على سير التاريخ .

فمصر روسيا كان من الحتم أن تقرره ثورة ولا يقرره انقلاب يدبره الساسة البرجوازيون . وقد اعترف مليوكوف فيما بعد بقوله : « إن ثورة ٢٧ فبراير لم تكن من صنعنا ، وقد حدثت رغم إرادتنا . »

نهاية امبراطورية الصقر ذي الراسين

في بداية عام ١٩١٧ كانت روسيا على عتبة ثورة جديدة . فقد بلغت كراهية الشعب للأنوقراطية ذروتها . وكان كل طابور للنخب في المدن يتحول تلقائياً إلى اجتماع سياسي تناقض فيه سياسة الحكومة بعبارات خالية من المجاملة .

وقد جاء في تقرير الرئيس فرع موسكو التابع لإدارة الأمن بصور فيه المشاعر العامة ، أن عبارات مثل « الضيق بالحال ، و « النداء الشديد ، و « الخط ، وما إليها لا تعتبر إلا تعبيراً خفيفاً على الواقع .

واستلزم التقرير إلى أنه يمكن القول بأن « المشاعر الحالية إذا قورنت بالمشاعر التي سادت في ١٩٠٥ - ١٩٠٦ فلاشك في أن مشاعر تلك الفترة كانت أكثر تعاطفاً مع الحكومة . . وقد بلغت الجماهير درجة من التوتر والعداء بحيث

لم تعد تبالى بالتعبير عن مشاعرها سواء تجاه الحكومة أو تجاه السلطة العليا

أما الفلاحون فإن حديثهم كان يدور حول شيء واحد : ترى متى ستنتهى هذه الحرب اللعينة ؟ وكانت الأنباء عن الحالة الممتوية للجيش مفزعة للقيصريه ، إذ كانت تردد أن الجيش لم يعد يؤمن بالنصر ، وأن الجنود يرون أن تصرفات قادتهم هى الخيانة بعينها ، وأنهم يريدون إنهاء الحرب فى أقرب وقت ممكن . وكان من رأى السلطات القيصريه أن القاعدة البحرية فى كرونستاد قد تحولت إلى برميل بارود أو شك فتيله على الاشتعاع ، وأن الانفجار يمكن أن يحدث فى أى لحظة (١) .

وكما كان الحال من قبل ، كانت الحركة الثورية تحت قيادة الطبقة العاملة ، وكانت طليعتها بروليتارية بتروجراد التى يصل عددها إلى ١٠٠.٠٠٠ . وقد ولدت طاقتها الثورية من خلال مجموعة كبيرة من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتحدت بتقاليدها النضالية والاممية وكذلك بنشاط المنظمات المشفية فالثورة لم تكن فقط نتيجة للفقر والحرمان اللذين يعانيهما الشعب الذى أنهركه الكدح القاصم للظهور ، بل نمت أيضا من احتجاجه الواعى على حرب السلب والنهب التى لم تكن تعنيه فى شيء ، وعلى النظام الاجتماعى الظالم ، وعلى السياسة غير الديمقراطية للنظام الاوتوقراطى .

وفى يناير وفبراير ١٩١٧ بلغ عدد المضربين فى روسيا ٦١٠ ألف عامل . واشترك ٨٥ ٪ منهم فى إضرابات سياسية . وحتى ذلك الحين لم يكن هناك بلد واحد شهد تحركات فى مجال الصناعة على هذا النطاق وبهذه الكثافة . وكتبت إدارة

(١) كانت كرونستاد قلعة وميناء يقدم الخدمات للأسطول ويضمن الدفاع

عن بتروجراد من البحر .

الأمن القيصري ، وأن فكرة الإضراب العام تكسب أنصاراً متزايدين في كل يوم ، وأصبح لما من التأييد قدر ما كان لما في عام ١٩٠٥ ... والجمهير العاملة قد أدركت أن الإضراب العام والثورة التي تعقبه أمران ضروريان ويمكن تنفيذهما . .

وكانت بتروجراد هي عتد أنظار الوطن كله في تلك الأيام . فقد اندلعت فيها موجة من الإضرابات الواسعة في ٩ يناير عند احتفال العمال بذكرى إطلاق العلامات القيصريّة النيران على مظاهرتهم السليبية في ١٩٠٥ . واستؤنفت المظاهرات والتحركات العمالية في العاصمة في ٢٣ فبراير (٨ مارس حسب التقويم الجديد) الذي كان هو اليوم العالمي للراة . واستمر التحرك في الاتساع في الأيام التالية وتحول في ٢٧ فبراير إلى انتفاضة طائفة للعمال والجنود ضد النظام القيصري ففي كل صباح كان آلاف العمال يطالبون بالسلام والخبز والحرية ، ويتدفقون من مشارف طريق نيفاروسبكت ، الشمر في قلب المدينة ، كأنهم موجه المد العارمة . وانضم إلى اجتماعاتهم ومظاهراتهم الطلبة والموظفون والمتقنون ذوو الفكر الديمقراطي ، ثم انضم إليهم بعد ٢٦ فبراير الجنود الذين انتقلوا إلى جانب الثورة . وكانت الأناشيد الثورية تسمع في كل مكان ، واللافتات والآيات الحمراء ترفع وقد كتب عليها وتسقط الحرب ! ، ، يسقط الاستبداد ! ، ، تحيا الجمهورية ! ، .

وبدأت السلطات في تنفيذ خطتها ، لمواجهة الشعب ، التي كانت قد وصفت مقدماً في اليوم الأول للثورة ، ٢٣ فبراير . ولكن رغم ما بذله الضباط من جهود يائسه فإن أفراد البوليس والجيش النظامي لم يبدوا حماسة خاصة . وكانت القوات قد تالقت في مساء يوم ٢٣ فبراير الأمر باستخدام الأسلحة النارية ضد المتظاهرين وفي اليوم التالي أطلق الجيش والبوليس النار بالفعل عليهم وقتل بضع عشرات .

لكن الجماهير ، على عكس ما كانت السلطات القيصريّة تأمل ، لم تتراجع .
وعندما عاد الجنود إلى مكنتهم ترددت بينهم الشكوى : « ليس في وسع المرء
أن يطلق النار على أفراد شعبه ... إن كل ما يطلبونه هو الخبز ... لماذا ينبغي
أن نذبح أناساً أبرياء ، »

وفي اليوم التالي بدأ الجنود في الانتقال إلى جانب العمال ، وإعطائهم السلاح ،
وتعمير الضباط الذين يبدون رجعيه شديدة . وكان يوم ٢٧ فبراير اليوم الخامس
في الثورة الروسيّة الثانية . ففي الصباح انضم ١٠٠٠٠ جندي إلى العمال ، وأعتقهم
في العصر ٢٥ ألفا آخرون ، وأعتقهم في المساء نحو ٧٠ ألفاً . واستولى الثائرون
على جميع النقاط الهامة في المدينة : الكبارى ، ومحطات السكّة الحديد ، والترسانة ،
ومكتب التلغراف والبريد ، وغيرها من المؤسسات الحيويّة . بل إن المدينة بأسرها
كانت في الواقع في أيدي الثوار فيما عدا قصر الشتاء وقلعة بطرس وبولس ودار
القيادة البحريّة . وكانت القوات الموالية للحكومة تذوب ساعة بعد أخرى .
ووجه رئيس مجلس الدوما ، رودزيانكو ، خطاباً يتضح بالقلق إلى القيصر الذي
بقي في مقر القيادة العامة قال فيه : « أن الموقف يسير من سيء إلى أسوأ . ويجب
اتخاذ إجراءات فوريّه لأننا إذا انتظرنا إلى الغد سيكون الأوان قد فات . وقد
حلت الساءة التي سبتمبر فيها مصير البلد والأسرة الحاكمة . »

ولكن حتى بعد ذلك لم يفهم القيصر أنها ثورة شاملة وليست مجرد « شغب
من أجل الغذاء » في العاصمة . وقد قال القيصر : « إن ذلك الرودزيانكو السمين
قد أرسل إلى مرة أخرى كلاماً فارغاً لن أعنى حتى بالرد عليه . »

وفي ذلك الحين كان مصير النظام الملكي قد تقرر بالفعل . لحامية بتروجراد
بأكملها تقريباً ، ويبلغ تعدادها نحو ١٧٠ ألف جندي ، كانت قد انتقلت إلى
جانب الثورة خلال اليوم الأول من مارس . وفي يوم ٣ مارس انضم أسطول بحر

البلطيق بكامله إلى الثورة . وهبص على نقولا الثاني أثناء عودته إلى العاصمة .
بالقطار ، في مدينة بسكوف .

وفي يوم ٢ مارس أجبر على التنازل باسمه وإسم ابنه لصالح أخيه ميخائيل .
وبعد أيام قليلة قبض على القيصر وأرسل أولا إلى « تسارسكوى سيلو » مع أسرته .
ثم أرسل بعد ذلك ، في أغسطس ١٩١٧ ، إلى مدينة تبولسك في سيبيريا .

وكان انتصار الثورة في بتروجراد إشارة لإسقاط السلطات القيصرية في كل
أنحاء البلاد . وفي أعقاب ذلك جاءت انتفاضة موسكو في ٢٨ فبراير وأول مارس
وخلال الأسبوع التالي امتدت الثورة إلى معظم المدن الرئيسية الأخرى . وكانت
الصورة متشابهة في كل مكان : إضرابات عمالية ، ومظاهرات ، واجتماعات ،
وانتقال جنود الحاميات المحلية إلى جانب الشعب . وكان الجهاز الإداري
القيصري قد وصل إلى درجة من الشلل ، والتحرك الثوري في الجيش قد وصل
إلى مدى في بداية ١٩١٧ ، بحيث أمكن إتمام ثورة فبراير بخسائر قليلة نسبياً .
فكان عدد من قتلوا في بتروجراد ١١٧ شخصا ، بينما لم يتجاوز عدد من فقدوا
أرواحهم في موسكو ثمانية . وقامت الجماهير الثورية في كل مكان بإطلاق سراح
المسجونين السياسيين ، واحتلت الإدارات الحكومية ، وانتزعت الشارات التي
تحمل النسر ذا الرأسين ، شعار الأوتوقراطية ، ومزقت وأحرقت صور القيصر .
وأطلق الرصاص على موظفي القيصر الذين اكتسبوا أشد الكراهية بمقتضى
أحكام أصدرتها المحاكم الشعبية التي تشكلت تلقائياً في المواقع المختلفة .

ولم تلبث الثورة أن امتدت لا إلى ساميات الجيش في المناطق الداخلية وحدها
بل وشملت الجيش في الميدان أيضا . ونظم الجنود مظاهرات وعقدوا لقاءات
 واجتماعات واسعة . وتشكلت لجان للجنود في وحدات الجيش . وطرد الضباط

والقادة المعروفون بإخلاصهم الشديد للقيصر ، وانتخب مكانهم قادة آخرون من بين الجنود وصفار الضباط ذوى الفكر الثورى . ولم تقف أغلبية الجنود وراء القائد العام بل شاركت مشاركة إيجابية فى إسقاط الاوتوقراطية ومدت يد المساعدة للانتفاضة المسلحة . واندلعت فى الجيش نيران صراع طبقى حاد بين الجنود الثوريين والضباط الرجعيين ذوى الافكار الملكية .

وبناء على ما قاله القائد الروسى المشهور أ . أ . بروسيلوف فإن عدد الضباط الذين تبعوا الجنود فى انضمامهم للثورة فى فبراير ومارس ١٩١٧ لم يتجاوز ٢٠ ٪ ، وحتى من فعلوا ذلك لم يكونوا دائما مخلصين . أما الآخرون ، فقد أغلغوا مواقعهم حولهم ، وأخفوا حقدهم على الثورة والثوريين . وكان الموقف فى الجبهة ، والتهديد المستمر بهجوم الألمان آخر ، يحولان دون تطور العملية الثورية إلى درجة ما . لكن الجيش فى الميدان كان إلى جانب الثورة بوجه عام . وكان موقف الجيش أيضا تعبيرا عن الموقف بين الجماهير الفقيرة للفلاحين الذين تألف منهم أغلبية القوات المسلحة . أما فى المناطق الريفية فقد بدأت الحركة ضد ملاك الاراضى فى ربيع ١٩١٧ . وبحلول مارس من ذلك العام كان قد سجل أكثر من بضع عشرات من التحركات الفلاحية فى محافظات البلد الثمانين .

وبالتالى فإن الاوتوقراطية قد أسقطت نتيجة للعمل المشترك من جانب القوتين : البروليتاريا فى المدن وجماهير الجنود الذين تم تجنيدهم من بين العمال والفلاحين . وبذلك تغلبت هذه الثورة على إحدى نواحي الضعف الرئيسية فى ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، وفى تلك الأيام كان العمال والجيش فى جانبين مختلفين من جوانب المتاربس . ومن الأمور ذات الأهمية القصوى أيضا أن البروليتاريا الروسية بقيادة الحزب البلشفى كان لها الدور الحاسم فى أحداث فبراير ومارس ١٩١٧ .

ونحن لم نورد حتى الآن غير الاحداث الرئيسيه التى ارتبطت بالثوار
التيصريه فى ثورة فبراير البرجوازيه الديمقراطيه . غير أن الامر كان أخطر من
ذلك . فن المهم أن نعرف من الذى قاد نضال جماهير الشعب ، وما الموقف الذى
اتخذته البرجوازيه فى تلك الايام ، وكيف حلت مسألة السلطة ، وهى المسألة
الرئيسيه فى كل ثورة . وتزداد أهمية توضيح هذه النقاط لانه تسود بشأنها
آراء متحيزة ، متناقضه ، غير دقيقه ، وخاطئه تماماً فى بعض الاحيان فى
الكتابات التاريخيه فى الدول الأخرى .

وعلى سبيل المثال فإن وللم تشمبرلين ، وهو مؤرخ أمريكي معروف ،
يقول أن «إنهيار الإمبراطوريه الروسيه فى ١٢ مارس ١٩١٧ كان نتيجة
لتحركات جماهيريه تلقائيه غير مخططة وغير منظمه وبغير قيادة بشكل لم يشهده
التاريخ مثيلاً من قبل» (١) .

وليس هو الوحيد الذى يقول ذلك . فهم يزعمون أيضاً أن المنظمات البلشفية
الصغيرة الضعيفة فشلت فى أن تؤثر بأى شكل ملموس فى سير الاحداث الثوريه
فى بتروجراد وفى المراكز الصناعيه الرئيسيه فى روسيا . ويقول المؤرخ البريطانى
أ . كار أنه لا يعتقد أن الأفكار البلشفية كانت من العوامل الخافه التى أسهمت فى
انتصار ثورة فبراير (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن عدداً من المؤرخين الأجانب يعتمدون فى أعمالهم
أيضاً إلى تشويه دور البرجوازيه الليبراليه . فيزعمون أن الميبرالين مهدوا الطريق
لانتصار الانتفاضه الشعبيه . وعلى سبيل المثال فإن المؤرخ البريطانى جورج

(1) William H. Chamberlin the first Revolution the Russian
Review 1964 Vol . 26 No 1 P.4

(2) George F. Curtis Studies in Revolution London 1956 P.134

كانكوف ، وهو ينحدر من أصل روسي ، يقدم اكتشافاً مثيراً في كتابه « روسيا ١٩١٧ — ثورة فبراير » فيزعم أنه كانت هناك في تلك الأيام مؤامرة ماسونية واسعة النطاق . ويقال أن المؤامرة شملت جميع الدوائر الليبرالية المعادية للآوتوقراطية ، وأنه كان لها دور حاسم في سقوط القيصرية . كما يزعمون أن تنظيم ماسونيا سرياً واسع النطاق كان يضم الكثير ممن أصبحوا وزراء في الحكومة المؤقتة . ووفقاً لهذا القول (وهو بالمناسبة غير مدعم بأي مستندات) فإن المنظمة الماسونية كانت تنبع سياسة انهماكية واضجة من أجل ضمان نفوذ الآوتوقراطية . ووفقاً لما يقوله كانكوف فإن تلك المنظمة هي التي لعبت الدور الرئيسي في أحداث فبراير ١٩١٧ ، وأن قادتها أصبحوا فيما بعد أعضاء الحكومة المؤقتة كما تبذل أيضاً محاولات لإبراز أهمية مجلس الدوما الذي يوصف بأنه « المجلس الوطني الأوحده » أثناء الثورة ، وأنه أصبح الخليفة الطبيعي للقيصرية وأنه تلم سلطه الدولة نظراً لأن « الجماعات غير المنظمة من العمال يحملهم الرثه والجنود بينهم الرسمى الرمادى » والذين أسقطوا القيصرية « لم يكن لديهم شيء مشوس يضمونه في مكان النظام القديم » (١) .

وليس في عزمتنا أن ندخل في مجادلات طويلة مع هذه النظريات عن ثورة فبراير . ونكتفي بأن نقدم للتارىء بعض اوقائع لمساوته في تكوين رأيه الخاص .

إننا عندما نحلل « آليات » مولد أى ثورة ، نفترض أن الانفجار الثورى يلخص نتائج تراكم وتعمق التناقضات الإجتماعيه ، وهى عمليه موضوعيه بطبيعتها ، والعمل التحضيرى الهائل الذى كانت الأحزاب الثوريه تقوم به بين جماهير الشعب

(1) See Willam H . Chamberlin the Russian Revolution 1917 1921 New York 1935 vol 1 pp . 73,60

في السنوات السابقة . وأى ثورة كبرى تجتذب الجماهير العريضة لتحرك السيامى
والجماهيرى الحق ، لا يمكن أن تستغنى عن قدر من عنصر التلقائية ، فهذا العنصر
يشهد على القوة الهائلة والافق العريض للثورة لاعلى ضعفها . غير أنه لا يمكن
لاى ثورة أن تكون تلقائية خالصة ، لأنه لا مفر من أن يظهر في مجراها الدور
القيادى لحزب ثورى أو أحزاب ثورية متعددة بطريقه أو أخرى . كما أن من الواضح
أن جماهير الشعب ، أى الملايين من العمال وفلاحين والجنود والطلبة الخ الذين ينضمون إلى
الحركة في آخر الأمر ، إنما يتطورون و ينضجون ، سياسيا بعد أن تكون
الحركة قد بدأت ، وخلال مجرى النضال .

وكانت جميع هذه العوامل موجودة في ثورة فبراير في روسيا . وصحيح أنه
لم يخطط مسبقاً لقيامها في يوم ٢٣ فبراير ١٩١٧ ، سواء من جانب البلاشفة أو
أى تنظيم ثورى آخر ، وأن تحرك الجماهير في تلك الأيام اتسم بتدر كبير من التلقائية ومن
الصحيح أيضاً أن الحزب البلشفي كان قد أصيب بضعف شديد نتيجة لضربات
القيصريه ولم يكن لديه غير ٢٤ ألف عضو في وقت ثورة فبراير ، من بينهم ألفان
في بروجراد . ومع ذلك فهناك أسباب عديدة تدعو للقول بأن البلاشفة ،
والبلاشفة وحدهم ، هم الذين قاموا بالدور الرئيسى في تلك الأيام التاريخيه من
فبراير ١٩١٧ ، وإن لم يكونوا وحدهم قادة الجماهير الثوريه .

تشهد على ذلك الحقائق التاليه . كان البلاشفة في بروجراد قد بدأوا بالفعل
الإعداد للاحتفال بيوم المرأة العالمى في منتصف فبراير ١٩١٧ . وقد جاء في
منشور أصدرته لجنه بروجراد التابعه لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطى الروسى
بهذه المناسبه ، دعوة للعمال والعاملات إلى تشكيل حكومه ثوريه مؤقتة ، والإطاحة
بالنظام القيصرى ، وإنشاء جمهوريه ديمقراطيه ، وتطبيق يوم العمل ذى الثمانى
ساعات ، وتسليم جميع الملكيات الزراعيه للفلاحين . وعندما تحول في صباح

٢٣ فبراير الاضراب الذى بدأ استجابة لدعوة البلاشفة إلى مظاهرات واضطرابات جماهيرية فى الشوارع ، كان من الصعب أن يتنبأ أحد بما إذا كانت الامور ستتلو إلى صدام حاسم مع القيصرية . ولكن كان من الامور ذات الدلالة الكبيرة أن القادة البلاشفة انتهجوا بالفعل سياسته توسيع الحركة الشعبية إلى أبعد مدى فى مساء يوم ٢٣ فبراير . وتقرر على الفور البدء فى الحملة لكسب الجنود إلى جانب المال وتمليح الوحدات البروليتارية .

وفى اليوم التالى اتخذ القرار بالانتمال إلى الاضراب السياسى العام بهدف تطويره ليصبح انتفاضة شاملة . وكان ذلك فى اجتماع عقده قادة التنظيمات البلاشفية فى بتروجراد والمكتب الروسى للجنة المركزية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى للعمال الروس . وشن البلاشفة حملة سياسية فى مصانع بتروجراد ووحدات الجيش المرابطة بها من أجل إقامة التحالف الثورى بين الجيش والشعب ، وهو التحالف الحاسم فى نتيجة الثورة .

وقد جاء فى منشور صدر عن المكتب الروسى للجنة المركزية للحزب فى ٢٥ فبراير دعوة للجميع إلى المعركة إلى الشوارع ، وأصدر البلاشفة فى الوقت ذاته منشوراً آخر يدعو الجنود للوقوف إلى جانب العمال . وفى ذلك اليوم عقدت لجنة الحزب فى بتروجراد اجتماعاً لتحديد الخطوات العملية التى تتخذ فى حالة تحول الاضراب إلى انتفاضة شاملة . وكان من تلك الخطوات إنشاء المتاريس ، والاستيلاء على سنترالات التليفون ومحطة الكهرباء وما إليها . ورغم التنبؤ على نحو ١٠٠ من أعضاء الحزب النشطة فى ليلة ٢٦ فبراير فقد استمر البلاشفة فى قيادة الحركة . وفى اجتماع عقد فى وقت متأخر عصر يوم ٢٦ فبراير قرر قادة المنظمات البلشفية تحويل الاضراب إلى انتفاضة شاملة . وأبلغ قرار القادة البلاشفة إلى الخلايا الحزبية فى المصانع وأصبح برنامج عمل لجميع المنظمات البلشفية .

وفي يوم ٢٧ فبراير قاد البلاشفة الانتفاضة في شوارع المدينة . ووضعت
منشور في اليوم ذاته يدعو إلى انتخاب مجلس (سوفيت) لنواب العمل ،
والتوقيع أن الانتخابات كانت قد بدأت في المصانع بالفعل منذ يوم ٢٤ فبراير ،
بمبادرة العمال أنفسهم . فذكرى مجالس السوفيت الأولى التي شكلت في ١٩٠٥
والتي كانت الشكل الجنيني للحكومة الشعبية الحقبة الجديدة ، بقيت حية في
نفوس العمال طوال الأعوام الاثني عشر التي انقضت بين ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧
وثورة فبراير . وعندما بدأ العمال في تشكيل مجالسهم مرة أخرى ، أيد البلاشفة
مبادرتهم على الفور . وفي نفس اليوم ٢٧ فبراير ، أصدر البلاشفة منشوراً
تضمن بياناً بعنوان « إلى مواطن روسيا » ، وكان البلاشفة هم الحزب الأول
والوحيد الذي أعلن برنامجاً سياسياً وشعاراته وخطة محددة للاستمرار في تطور
الثورة حتى قبل انتصارها النهائي . ودعا البيان إلى تشكيل حكومة ثورية مؤقتة ،
وقع المؤامرات المعادية للثورة ، وإنهاء الحرب على الفور بالجهود المشتركة للعمال
في جميع البلاد . كما طالب البيان بإقامة جمهورية ديمقراطية ، وتطبيق يوم العمل
ذي الثماني ساعات ، ومصادرة الأراضي التي يملكها النبلاء وأسرهم القيصري .

وبفضل الأعمال السابقة التي كان البلاشفة قد قاموا بها ، فقد كانوا مستعدين
لأي تطور تاريخي يلزم ، مهما يكن مفاجئاً ، وكانوا قادرين على مساندة المبادرة
الثورية للجماهير على الفور ، بل والتأثير عليها سواء من الناحية الفكرية أو
التنظيمية . وفي تلك الأيام كان البلاشفة دائماً في الصف الأول للنضال — على
عكس المناشفة والاشتراكيين الثوريين الذين اتخذوا خلال المعارك الثورية
موقفاً أقرب إلى موقف المتفرجين منه إلى موقف القادة وبفضل أعمال البلاشفة
كان مسلك الجماهير بعيداً عن مجرد الشعب الفوضوي . فقد كان هناك هدف
مشترك (سقوط الحرب والانتقراطية) ووسائل موحدة للنضال ، تشمل
الاضرابات ، وحضر العمال في المصانع المجاورة على الاضراب ، والاجتماعات

والمظاهرات في قلب المدينة ، والناسخى مع الجنود ، والمواجهة المسلحة لصدا
قوات الجيش والبوليس والاستيلاء على مكاتب الحكومة وعلى المراكز
الاستراتيجية الرئيسية في المدينة . ومن الأمور ذات الدلالة أنه مع ازدياد وحدة
النضال ، زادت عناصر الوعي السياسى والقدره على تنظيم الجماهير . وإن كان من
الصحيح أن اسرعه الحائنة والتدفق الواسع للعمال والجنود وانساع حركتهم
لم يمكن البلاشفه من مد تأثيرهم التنظيمى إلى هذا الفيضان الهائل كله . ولكن
بالمقارنه بالأحزاب السياسيه الأخرى يتبين أن البلاشفه قاموا بعمل كبير فى هذا
السير ، كما نجحوا فى أن يوفرُوا للنضال التوجيه الايديولوجى السليم ، رغم أن
زعيم الحزب فلاديمير لينين كان خارج روسيا فى ذلك الحين ، مما جعل من
الأصعب على البلاشفه بغير شك أن يحددوا اتجاهاتهم فى الوضع المعقد
والمتناقض الذى نشأ وفتها .

أما المناشفه والاشتراكيون الثوريون ، فقد كانت الثورة بالنسبه إليهم
مفاجأه ، بل أنهم لم يأخذوها مأخذ الجد فى البدايه . وقد حازل المناشفه فى
أول الامر تهدته سرعة الحركة وعلقوا آمالهم على مجلس الدوما . وكانت أكثر
المجموعات يساريه من الفئات الاشتراكيه الديمقراطيه غير البلشفيه ، وهى
المشتركة بين أحياء المدينه ، تتحرك متخلفه بوضوح عن سير الاحداث ،
ولم توجه الدعوه للعمال والجنود للقيام بانتفاضه شامله . وكانت تلك المجموعه
تضم المناشفه والروتسكيين وبعض الافراد التوفيقيين من البلاشفه ممن انحرفوا
عن طريق الحزب . وقد ترددت تلك الفئات فى التحرك ، واتخذت موقف
الانتظار لترى ما يكون ، وعارضت فى التعجيل بتطور الاحداث . وكان
حزب الاشتراكيين الثوريين الاعميين قد فقد كثيرا من قوته نتيجه لاعمال
القيص والاعتقال . ولم يكن المجموعه المركزيه للبادره ، التابعة للمناشفه
الاعميين أثر يذكر بين جماهير الشعب أيضا : وكانت هذه المجموعات الصغيره

كلها تعارض الحرب واللاتوقراطية ، وتتصل بانتظام بالبلاشفة ، وتبادل
المعلومات معهم ، لكن تلك الاتصالات لم تتجمع في التوصل إلى نتائج عملية .
وجاء العمل الموحد للطبقة العاملة خلال الثورة من أدنى خلال سير الصراع ،
وليس عن طريق الاتفاق بين الأحزاب . ومع ذلك فعندما عقد مجلس (سوفييت)
نواب العمال في بتروجراد اجتماعه الأول في ٢٧ فبراير (وابتداء من أول مارس
ضم السوفييت أيضا مندوبين لجنود حامية المدينة وأصبح اسمه سوفييت مندوبي
العمال والجنود) كانت المناشفة والاشتراكيون الثوريون هم الذين استولوا
على مراكزه القيادية . وكان السبب الأول في هذه المفارقة أن ثورة فبراير ،
وهي ثورة حقيقية للشعب وبالشعب ، جعلت من روسيا البلد الذي يتمتع بأكبر
قد من الحرية السياسية في العالم . فقد دفعت إلى النشاط السياسي جماهير هائلة من
الشعب كانت بطبيعتها الاجتماعية أقرب إلى البورجوازية الصغيرة وبسبب تفوقها
العددي البحت فإنها دفعت إلى الصفوف الخلفية بالعمال ذوي الوعي السياسي ،
وأثرت تأثيرا ملوسا على تشكيل مجالس السوفييت في بتروجراد والمدن
الأخرى . وكانت الشعارات التي رفعها المناشفة والاشتراكيون الثوريون والتي
استفلت المشاعر الوطنية بدعوتها إلى الدفاع عن روسيا الثورية ضد ألمانيا
الاستبدادية ، قد أصبحت برنامجا يلقي لدى تلك الجماهير البورجوازية الصغيرة
قبولا أكبر مما يلقاه برنامج البلاشفة ، ولا سيما لدى الجنود العديدين الذين كان
معظمهم من الفلاحين الذين لم يخرجوا من قراهم إلا منذ أمد قريب . ولم تكن
البورجوازية الصغيرة ترى في البلاشفة إلا دلهزامين ، و د متطرفين .

وكان الجنود يمثلون أغلبية ساحقة في سوفييت بتروجراد الذي ضم ٢٠٠٠
من مندوبهم في مقابل ٨٠٠ من ممثلي الطبقة العاملة . وخلال الحرب انضم إلى
الطبقة العاملة كثير من العناصر الفلاحية والعناصر ذات الوضع الطبقي غير المحدد .
وأخيرا وليس آخرا فقد كان البلاشفة منقسمين أكثر مما ينبغي في العمل الثوري

المباشر في شوارع المدينة ولم يوجهوا الاهتمام الكافي لتأكيد تفويضهم بين الجماهير داخل مجالس السوفييت . وكان من أثر ذلك أن أصبح المندوبون البلاشفة في البدايه يمثلون أقلية ضئيلة في سوفييت بتروجراد ومع ذلك فقد اتخذت مجالس السوفييت غير البلشفية ذاتها ، في الوضع الثوري الحاد في تلك الايام ، عددا من القرارات الهامة ، من بينها ، الامر رقم واحد ، الشهير الموجه إلى وحدات حامية المدينة .

ولكن فلنعد إلى أحداث ٢٧ فبراير . في ذلك اليوم تشكلت اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما في نفس قصر تاوريدا في ذات الوقت تقريبا مع تشكيل مجلس سوفييت نواب العمال . وضمت اللجنة ميليكوف ورود زيانكوا وعددا آخر من ممثلي الاكثوريين والكاثوليك والتقدميين وكذلك المناشفة والترودفيك . وفي ليلة ٢٧ فبراير أصدرت اللجنة المؤقتة دعوة إلى الأمة تقول فيها إنها تولت مسؤولية إعادة الأمن والنظام وعيانت مسؤولين (قوميساريين) من أعضاء الدوما لإدارة مختلف أوجه حياة المجتمع إلى حين تشكيل حكومه جديدة . غير أن المحاولة الاولى التي بذلتها اللجنة لإعادة النظام ، إلى الجيش ، أي دفع الجنود إلى العودة لشكائهم وإلزامهم بإطاعة رؤسائهم السابقين ، انتهت بالفشل الذريع .

وبناء على طلب الجنود أصدر سوفييت بتروجراد ، الامر رقم واحد ، الموجه إلى وحدات حامية المدينة . وتضمن الامر تشكيل لجان منتخبة للجنود والبحارة في الجيش والاسطول . وأن توضع جميع الاسلحة تحت سيطرة تلك اللجان . وأن القوات لا تخضع في تحركاتها السياسية إلا لمجلس سوفييت بتروجراد ولجانها المنتخبة . وتضمن الامر إلغاء رتب الضباط ، وحظر المعاملة المنيه للجنود ، ومنحهم جميع الحقوق المدنية . وكان القرار رقم واحد ، بمثابة انفجار هائل فقد انتشر بسرعة بين صفوف الجيش في الجبهة وأصبح شعارا لحركة الجنود الجماهيرية الرامية إلى جعل القوات المسلحة أكثر ديموقراطية . واضطرت اللجنة المؤقتة للدوما إلى قبول ، الامر رقم واحد ، الذي عزز دور العمال والجنود في النضال الثوري . وبينت هذه الواقعة بوضوح أن ساسة الدوما لا يملكون قوة على الإطلاق . ومع ذلك فإن المناشفة والاشتراكيين الثوريين الذين كانوا قد استولوا على القيادة في مجالس سوفييت بتروجراد ، اتبعوا سياسته توفيقية . وكانوا يعتقدون أنه لا بد أن

يختلف القيصر به حكم البورجوازية ، ونتيجة لذلك شكلت في ٣ مارس
الحكومة المؤقتة بورجوازية بموافقة مجالس الدوفيت . ولم تضم الحكومة
غير ممثل واحد للديموقراطية الثورية هر ١ . ف كيرينسكي ، وهو
بحاي كان يرأس بمجموعه الزودوفيك وأصبح في مارس ١٩١٧ عضوا
في الحزب الاشتراكي الثوري . وبذلك وحدث سلطه مزدوجه ، وهي
ظاهرة نادرة في التاريخ ، إذ كان هناك تعايش بين مجالس سوفيت
بتروجراد الذي يتمتع بتأييد شعبي كبير وبين الحكومة المؤقتة التي كانت
في بادئ الامر عاجزة تماما عن القيام بأى عمل . وحتى اللحظة
الآخيرة كانت البورجوازية تحاول إنفاذ النظام الملكي المنهار ، وأن
تضع شقيقه القيصر ميخائيل على العرش . غير أن هذا الأخير
لم تكن له قوة عسكرية تؤيده وآثر التنازل . وكان التحالف بين
البورجوازية والعناصر الثورية تحالفا سطحيا تماما كان زواجا بالإكراه
فلم يكن أمام البورجوازية غير أن تتشدد بالتضامن مع الثورة . غير
أن الأغراض الحقيقية للبورجوازية كانت مناقضة تماما لإرادة الشعب .
ولذا لم تكن الإطاحة بالقيصرية إلا استكمالا للرحلة الأولى من الثورة ،
والتي كان من المحتم في تلك الظروف أن تواصل سيرها إلى الامام .

ولم تؤد الإطاحة بالقيصرية إلى حل المشاكل الإجتماعية المعقدة التي
أدت إلى قيام الثورة الروسية . فلم يكن الشعب في حاجة فقط إلى الحرية
(التي لم تلبث الحكومة المؤقتة أن قيدتها) بل كانت في حاجة أيضا إلى
إلى السلام ، والغذاء ، والأرض : والحقوق المتساوية لجميع القوميات .
وفي الوقت ذاته فإن الرأسماليين الذين كانت لهم السيطرة على الحكومة
المؤقتة (وانضم إليهم منذ مايو ١٩١٧ المناشفة والاشتراكيون الثوريون)
لم يتمكنوا في أى وقت حتى أكتوبر ١٩١٧ من حل أى مشكلة جوهرية تواجه
البلاد . وكانت أحداث فبراير ومارس ١٩١٧ مجرد بداية لصراع سياسي حاد
قاد إلى انتصار ثورة أكتوبر بعد ثمانية أشهر .

ص	مدخل	٥
٧	أولاً : تناقضات المجتمع الروسى	٧
	— الجمع بين الرأسمالية الصناعية	
	والمالية المتقدمة والملكية الاقطاعية	
	ونظام سياسى عتيق	
٢٢	— هرم آبل للقوط	٢٢
	ثانياً : الإناء يغلى	
٤٥	— الطبقات العليا والدنيا	٤٥
	— المعسكر الحاكم	
٥٢	— معارضة صاحب الجلالة	٥٢
٧٨	ثالثاً : الحرب العالمية الأولى	٧٨
	— أضرار الاقتصادى	
٨١	— النظام القيصرى يعانى حشرة الموت	٨١
٨٩	— الشعب يناضل والبرجوازية	٨٩
	تسلل إلى السلطة	
١٠٠	— نهاية إمبراطورية الصقر	١٠٠
	ذى الرأسين	

هذا الكتاب

● الفه اثنان من المؤرخين السوفييت هما افنير كوريين وستانيسلاف تيوتويوكين ، بأسلوب مبسط للقارىء العادى غير المتخصص ، وهو جزء من سلسلة من الكتب بعنوان ' القصة الحقيقية للثورة الروسية وبناء الاشتراكية ' ، التى تصدر تحت اشراف الاكاديمى اسحق مينت ، والتى تغطى فترة طويلة تبدأ منذ عشية ثورة اكتوبر فى روسيا حتى الوقت الحالى . وتهدف الى مساعدة القارىء غير السوفييتى على فهم اسباب الثورة الاشتراكية فى روسيا .

والكتاب الحالى يتحدث عن الفترة التى سبقت الثورة منذ بداية القرن العشرين حتى قيام الثورة .

دار الثقافة الجديدة

على

تصدير

التمن :